ذهان الدوبامين

حسين الجالي

اسم الكتاب : ذهان الدوبامين

اسم الكاتب : حسين الجالي

تصميم الغلاف : مي مجدي

تدقيق لغوي وتنسيق : نورهان هاني

رقم الإيداع : ٢٠٢٤/٢٧٣٢٩

الترقيم الدولي : ٥-٥٢-٨٧٩١-٩٧٧-٩٧٨

كافة الحقوق محفوظة للناشر والمؤلف

لا يسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقة، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابي مسبق من الناشر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببعض الفقرات لغرض النقد والدراسة، طبقًا لما تحدده قوانين واتفاقات حقوق الملكية الفكرية.

ذهان الدوبامين

إهداء

إلى أول من علَّمتني الحكمة، فقيدة الروح والقلب... أمي.

تنويه:

جميع الأسماء والأحداث في هذه الرواية من وحي الخيال الحي، ولا تمس الواقع الافتراضي بصلة.

زهان الدوباميز
(باب الحكمة)

الحقيقة يجب أن تراها بعينيك وتلمسها بيديك، ولا تحتاج إلى إيمان.

أما اليقين فلا يحتاج أن تراه بعينيك ولا تلمسه بيديك، ويحتاج إلى إيمان.

أما الخيال، فهي الحقيقة التي لا تكون حقيقة، واليقين الكاذب الذي لا يتواجد به إيمان.

وحين يظهر الشك، يهدم الثلاثة أو يخلط بينهم، فلا تستطيع التمييز.

حتى تحدث حقيقة لا تعطيك حق التفكير... الموت.

عام ٢٥٩٠ قبل الميلاد،

في وسط الصحراء السحيقة وقت غروب الشمس، وهي ترتدي ثوب الاعتزال البرتقالي، يمتطي رجلٌ أصلع جوادًا أبيض يحاول أن يهرب مسرعًا من ثلاثة جنود برداء أبيض، وعلى رؤوسهم قلنسوة فرعونية، يمتطون خيولًا جامحة، يتمنطقون بالسيوف ويحملون الأقواس والسهام.

بين الفينة والأخرى، يمرق سهم من أحدهم نحو الرجل الأصلع الذي هو أحد كهنة رع.

يفادي الكاهن كل ما يرمون بخفة ومهارة، تارةً بالانخفاض والالتصاق بجواده، وتارةً بالمراوغة والالتفاف.

وكلما اقترب الجنود منه، يحنو على الجواد ويتحسس رقبته كأنه يستعطفه، ثم يضرب بقوة على مؤخرته عددًا من الضربات تشحذ قوته وتزيد من سرعته، كأن أجنحة قد خرجت من بين جانبيه، فتزداد المسافة مرة أخرى بينهم. وهكذا استمرت المطاردات حتى قاربت ستائر الليل السوداء أن تنشر الظلام في الصحراء. والكاهن يحاول الهروب من الجنود، وقد ظهر عليه التعب والإرهاق، والعرق يتصبب من جبينه وتتلاحق الأنفاس في صدره، ولكنه يملك الإصرار على الوصول إلى مكان ما.

برقت أسارير الكاهن حينما ظهر في الأفق هدفه المنشود بجوار مقبرة سنفرو، سرداب يتخفى بين طيات الصحراء. قفز الكاهن عن جواده ليسقط على الأرض، ثم يعود مرة أخرى للنهوض، ثم أدلف مهرولاً إلى السرداب. كان السرداب شديد الظلمة، تحرك الكاهن داخله وهو يحفظ كل ذراع فيه.

بدأ مسرعًا قبل وصول الجنود، فتحسس حائط السرداب كأنه يبحث عن علامات أو نقوش في الجدار حتى وجد ما كان يبحث عنه، فأخرج من بين ملابسه وجسده رسالة وضعها في فتحة انغلقت بعد دخول الرسالة. في ذلك الوقت وصلت الجنود إلى السرداب، ولكن بسبب الظلمة، خرج أحدهم مرة أخرى لإحضار شعلة إنارة. كتم الكاهن أنفاسه وتحرك إلى فتحة أخرى بالسرداب، ثم أخرج عصا نصف ذراع من ملابسه، أعلاها كرأس طائر وأسفلها كقدم طائر. أدخل أسفل العصا إلى الفتحة، ثم أخرجها برسالة تشبه الأولى، ثم وضع تلك الرسالة بين ملابسه وجسده. وفعل الكاهن كل هذا في السرداب بسرعة عجيبة كأنه تدرب عليها ألف مرة. ثم بدأ الكاهن محاولة الالتفاف خلف الجنود، ولكن قد عاد الجندي الثالث معه شعلة نار فأضاء السرداب ووقع الكاهن في قبضتهم وأخرجوه من السرداب. ثم بدأ أحد الجنود بالتحدث، ويبدو أنه قائدهم، قائلاً: "أين رسالة الكاهن الأعظم؟"

ليرد عليه الكاهن وهو جاثٍ على ركبتيه تحت إرهاب السيوف: "لن أسلمها لكم حتى تفيض روحي إلى عالم أوزيريس." ليرد القائد قائلاً بغضب وبصوت جهوري: "سيكون الموت هو أعظم حلم لك، رحمةً من العذاب الذي سوف تذوقه مئات المرات في الليلة الواحدة." ثم يبدأ القائد بتفتيشه ليجد الرسالة التي قد أخفاها بين ملابسه، ويتحرك نحو جواده ليأتي بقارورة ماء، ويفتح الرسالة التي كانت فارغة من النقوش، ثم يسكب الماء عليها وتبدأ النقوش بالظهور. تلمع عيون القائد بنشوة الانتصار قائلاً: "رسالة الكاهن الأعظم." ثم يتجه صوب الكاهن ويأمر الجنود بالتخلص منه، ويبدأ الكاهن بالاستعطاف من القائد قائلاً: "بحق الإله بتاح... لا تخونوا تحوت... لا تخونوا قلب رع... لا تخونوا تحوت... لا تخونوا قلب رع... بحق الإله بتاح... بحق الإله بتاح." لينفذ سيف الجندي في صدر الكاهن.

عام ٢٠٢٤ ميلادية

يفزع أحدهم من نومه وهو يضع يديه على صدره قائلاً: "بحق الإله بتاح... بحق الإله بتاح..." وصدره يعلو وينخفض وكأنه كان يعدو في الحلم، ثم يرفع يده من على صدره وينظر إليها ويتأكد من عدم وجود دماء. ثم يأخذ كوبًا من ماء قد وضعه بجانب السرير، ويديه ترتعشان وهو يشرب، ثم بدأت تهدأ أنفاسه وقال: "بتاح إيه وبتاع إيه يا فكري، دي آخِرة القراءة قبل النوم." ثم نظر إلى رواية وضعها بجانب السرير قائلاً: "أول يوم في عبث الأقدار، ربنا يسامحك يا عم نجيب." ثم ينظر إلى ساعة الحائط قائلاً: "لسه بدري"، ويعود مرة أخرى إلى نومه...

في صباح اليوم التالي، وداخل إحدى شركات المقاولات، يقف أحد مهندسي الشركة أمام كولدير المياه يشرب بهدوء ويرقب كل من يدخل من باب القسم الذي يعمل فيه... هذا هو المهندس فكري عبد الله. يحلل كل شيء يراه وينتقد كل ما يحدث حوله، ويعتبر كل ما يستنتجه حقيقة لا شك فيها وكأنه رسول أو نبي أو عارف بالله ملهم. دائمًا ينظر إلى جميع من حوله على أنهم عوام لا يملكون الموهبة الربانية التي يملكها. نحيف الجسم معتدل الطول، له لحية وشارب، ودائمًا ما يداعبهما عندما يفكر.

يستمع له الجميع عندما يتحدث، فهو يملك الموهبة الربانية ونبرات الصوت الرخيم التي تجبر من حوله على الاستماع له... هكذا يعتقد. فكري مثقف يقرأ الكثير من الكتب في التاريخ والسياسة والفلسفة وعلم النفس ، ومن العجيب أنه في الكثير من الأوقات ينتقد ما يقرأ كأنه عالم جهبذ في الفلسفة أو التاريخ أو من السياسيين المحنكين. نعم، فكري رجل لا يشق له غبار، هكذا يقول عن نفسه.

الشركة داخل مبنى قديم يقع وسط القاهرة وقد تجاوز عمره المائة عام. تحكي روعة تصميمه عن القاهرة التي كانت تنافس باريس ومدن أوروبا في جمالها. المبنى يحمل طراز المباني التي تم تصميمها من عقول واعية لخفض درجات الحرارة دون أجهزة تكييف أو غيره، فيتمتع بسقف عالٍ ونوافذ تخلق مسارات تهوية تصل إلى كل ركن من أركان الغرف الواسعة التي تم تقسيمها لمكاتب زجاجية ووحدات عمل مكتبية.

المبنى من الخارج له طابع معماري إيطالي، وتمتلئ وجهته برسومات حول نوافذه تحكي عن مهندسين دمجوا بين صلابة البنيان وروعة وجمال الفن المعماري. حاول بعض المهندسين عديمي الفهم تغييره من الداخل بوضع بعض اللمسات الحديثة لجعله مناسبًا للاستخدام العصري، ولكن رغم كل المحاولات لم تُطمس هويته.

يدخل رجل ذو لحية بيضاء يرتدي نظارة طبية، شكله يناسب عراقة المبنى كأنه خرج من أحد جدرانه. يرتدي بدلة سفاري رمادية اللون بنصف كم لم يعد أحد يرتديها الآن، ورغم ذلك فهي في قمة الأناقة، ويكثر بها أزرار سوداء وجيوب وفتحات جانبية زادت من أناقتها إنه الأستاذ الضوى، أحد موظفي الشركة القدامى، ويعمل بها منذ أكثر من ثلاثة عقود، حيث تنقسم الشركة إلى نوعين من الموظفين: الأول الموظفون القدامى قبل تطوير الشركة، والثاني موظفون جدد بعد البدء في تطوير الشركة.

ينظر فكري إلى الضوى نظرات لا تبتعد عن البحث والتدقيق، ثم يبدأ بعد النظرات الثاقبة بمداعبة لحيته لينتظر من يرمقه بنظراته أن يبدأ بالحديث. قال الأستاذ الضوى وهو يدخل إلى أروقة القسم الذي يعمل به: "السلام عليكم." ليرد عليه فكري ووجهه تعلوه الابتسامة، وعينه المتفحصة لا تترك مكانًا في جسد الأستاذ الضوى إلا وفحصته: "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته."

ليبدأ فكري في التحدث لنفسه: "الأستاذ الضوى لم يصل الفجر اليوم، وغالبًا ملحقش أتوبيس الشغل وجاي بمواصلات." لقد أتى الأستاذ الضوى في وقت متأخر عن عادته، وكان العرق يعلو جبهته، والأتربة تملأ سطح حذائه، وعيناه منتفختان.

ليبدأ فكري الحديث بعد السلام قائلاً: "إزيك يا أستاذ الضوى، شكلك منمتش إمبارح كويس." ليرد الضوى قائلاً: "فعلاً يا هندسة، ولا حتى لحقت ميعاد أتوبيس الشركة وكسلت أرجع البيت أجيب العربية أجي بها... أنت عارف طبعًا أن أتوبيس الشركة مش بيفوت جنب بيتي."

ليرد فكري مبتسمًا: "إيه، صليت الفجر وراحت عليك نومة." ليرد الضوى قائلاً والوهن يظهر على عينه: "ولا حتى دي، أنا نمت متأخر وكنت تعبان، وراحت عليا نومة." ثم أردف: "الحمد لله."

جلس الضوى على مكتبه ليلتقط أنفاسه المنقطعة، فالرجل قد قارب الستين من عمره. ورح فكري يمارس هوايته في التحدث مع الآخرين وتحليل شخصياتهم بعد أن ألقى بكوب المياه الذي ظل في يده حتى جلس الضوى على مكتبه.

ثم أردف فكري بعد الجلوس بجانب الضوى: "الحمد لله اللي أنت جيت بالسلامة، ثم أردف قائلاً: قولي يا أستاذ الضوى، هو مبنى الشركة ده من إمتى؟"

الضوى مبتسمًا: "مش عيب يا هندسة تبقى موجود في الشركة من سنتين ومش تعرف تاريخ المبنى ده؟ ثم أردف قائلاً: "المبنى ده يا سيدي أتبني عام ١٨٧٩، تصميم إيطالي، وأتبني في عهد الخديوي إسماعيل."

قال فكري: "ينهار أبيض! ١٨٧٩، أنا كنت فاكر إنه مبنى في العشرينات أو الثلاثينات. الكتب اللي بتكلم عن البيوت القديمة في مصر مش كتير، ولا لمَّه كل المباني القديمة."

أثناء الحديث، كان يتوالى وصول الموظفين قبل أن تصل الساعة التاسعة صباحًا. اليوم هو يوم غير عادي، هناك مدير جديد سوف يحضر للشركة. فلم يكن المدير السابق يحقق طموحات الإدارة العليا، فكانت قراراته بطيئة، ويده مرتعشة، ولم يقم بالتطوير المطلوب للشركة.

ثم دخل أحد موظفي الشركة إلى القسم. فهمي هو أحد مهندسي الشركة، وهو أقرب زميل لفكري، شخص يغلب عليه الطيبة والابتسامة التي لا تفارق وجهه. يرضى بكل أحواله، ويمتلك حكمة لا يمتلكها الأذكياء، ولكن دون أن يدرك هذا.

دخل فهمي مبتسمًا كالعادة، يلقى التحية على كل من يقابله، ويقتحم جلسة فكري مع الضوى ويلقي عليهم السلام، ويبدأ في الحديث مباشرة مع فكري قائلاً: "إزيك، عامل إيه؟ تمام؟ خلصت مراجعة المقايسة الجديدة لمشروع المستشفى ولا لسه يا نجم؟"

ليرد فكري: "متستعجلش أوي كده... فيه مدير جديد بفكر جديد وطريقة شغل جديدة، اصبر لما نشوفه الأول قبل ما أطلع المقايسة." ثم أردف فكري: "يارب يا فهمي، تفضل موظف جديد على طول."

قال فهمي متعجبًا: "جديد... يعني إيه موظف جديد؟" ليرد فكري قائلاً: "عشان لو كنت من الموظفين القدام ماكنتش سألت على المقايسة أول ما جيت، كنت سألت على الفطار... الشاي كده يعني." ثم أردف: "عشان من كتر ما مرت الشركة بأكثر من تجربة تطوير الموظفين الجدد، بعد فترة بيكونوا زي الموظفين القدام، ما فيش عندهم شغف للشغل خلاص."

وغالبًا بيتابعوا شغلهم بالوقت، يعني أهم حاجة عندهم يركبوا أتوبيس الشركة، ويبصموا في الميعاد، ويفطروا، ويشربوا شاي، ويطمئنوا على بعض، وبعد كده يمشوا في ميعادهم، ومش مهم ما تم إنجازه... ولو فيه شغل مستعجل المدير طلبه ممكن يعملوه.

ثم قطع فهمي حديث فكري قائلاً: "وممكن (لا)!" ثم ضحك بصوت عالٍ ليضحك فكري وهو ينظر إلى الأستاذ الضوى معتذرًا له عما قاله هو وفهمي قائلاً: "طبعًا مش كل القديم كده."

ليرد الضوى قائلاً: "ولا كده مش فارقة كتير، بكرة هنشوفكم هتتحولوا ولا لا."

تصدر أصوات ترحيب خارج القسم في الممر من تجمع لبعض موظفي الشركة. قال فهمي: "باين المدير الجديد وصل."

ليرد فكري: "أممم، فعلاً في صوت دوشة في الممر." ثم أردف: "متستعجلش، ساعة بالكتير وهيعمل اجتماع."

ثم تحرك فكري وفهمي إلى مكان مكاتبهم. تليفون العمل يرن بعد حوالي نصف ساعة.

فكري يجيب: "الو، إزيك يا أستاذة، عاملة إيه؟ الحمد لله، تمام تمام، ماشي يا فندم، هنكون في الميعاد إن شاء الله. سلام."

قال فهمي وهو يجلس على مكتبه بجوار مكتب فكري: "إيه الدنيا؟"

قال فكري مبتسمًا: "السكرتيرة بتبلغ الاجتماع بعد ساعة لكل المهندسين بالشركة بمكتب المدير."

فكري مهندس منذ ست سنوات لم يتزوج بعد، ويمتلك سيارة متواضعة، لكن بشهادة الجميع هو مهندس مجتهد، ويتصدر دائمًا لحل مشاكل العمل الصعبة، وذلك طبعًا للتفاخر.

فكري متحدثًا لفهمي: "يا ترى الاجتماع داخل مكتب المدير ليه؟ ليه مش داخل غرفة الاجتماعات زي أي اجتماع طبيعي؟ كده البداية مش لذيذة، ربنا يستر."

فهمي لم يرد وحرك شفتاه لدلالة على عدم الفهم.

جلس فكري داخل الاجتماع على مسافة بعيدة من المدير الجديد، ولكنه احتفظ برؤية جيدة ليبدأ في تحليل شخصيته دون المشاركة كثيرًا بالحديث.

فكري متحدثًا لنفسه بعد النظرات الأولى للمدير: "باين عليه أول مرة يبقى مدير ومبسوط بنفسه. بقى مجبش الخمسين، مفتول العضلات، معتدل الطول، عينه ملونة، وشه تقل فيه الملامح الشرقية. حركة عينه غير ثابتة، بتتحرك في كل ركن في المكان كأنه عايز يشوف كل ردود أفعالنا ونظراتنا على كلامه، غالبًا ده عدم ثقة بنفسه في المكان الجديد. مش بيسلم على حد، مش عايز حد ياخد عليه تحيته للجميع هز الرأس حتى بدون ابتسام، وفي بعض الأحيان ابتسامة باردة."

المدير قائلاً بعد التحية على المهندسين والإشارة لهم بالجلوس: "اسمي المهندس حسام صبحي، مدير الشركة الجديد. ممكن كل واحد فيكم يعرفني بنفسه قبل ما نبدأ."

فكري في نفسه: "يعني أنت عايز تقنعنا إنك هتحفظ اسم يجى عشرين واحد مرة واحدة؟ ابقى قابلني في الممر وقول اسمي."

بعد التعرف، استأنف المدير الحديث قائلاً: "عايزين نبدأ من جديد ونشتغل بطريقة مختلفة. المطلوب من حضراتكم النهاردة، مفيش حد يروح إلا لما يكتب تقارير كاملة عن كل المشاريع اللي نفذها أو بينفذها، والتقارير تكون مدعومة بصور لكل الأعمال، وكل صورة تحتها وصف للأعمال، والتقارير كمان تكون شاملة خطة الجودة اللي تم تنفيذها خلال المشروع وكل المذكرات الخاصة بكل مشروع."

فكري لنفسه: "أيوه بدأنا يا عم فكري."

ثم صمت المدير برهة تفحص فيها ردود فعل المهندسين على وجوههم، ثم استأنف الحديث قائلاً: "واللي عايز يروح عادي يروح، بس النهاردة هيترتب عليه حاجات كتير الفترة الجاية."

وقبل أن يعطي أي فرصة لرد أي أحد من المهندسين، أنهى الاجتماع قائلاً: "شكرًا، اتفضلوا على مكاتبكم."

بعد الاجتماع في الممر، قال فكري لفهمي وهو يبتسم ساخراً: "إيه، هتقدر تخلص اللي المدير قال عليه النهاردة؟"

ليرد فهمي غاضبًا بصوت منخفض قائلاً: "لا طبعًا، ده هبل الكلام ده." ثم أردف: "وبعدين عندي ميعاد النهاردة مع دكتور المدام عشان آخر متابعة ليها في الحمل، مينفعش ما أروحش."

ليرد فكري بهدوء: "الرجل مش عبيط، الراجل عارف هو عايز إيه في المرحلة دي في المكان الجديد بتاعه بالضبط". ثم أردف قائلاً: "وعارف إنه صعب أي حد يعمله النهاردة، هو برضو عارف ده كويس جداً. وهقولك كمان، أصلاً هو مش عايز حد يعمله."

فهمي بدأ بفتح فمه محاولاً فهم ما يقوله فكري.

ثم أردف فكري: "عشان إحساسنا كلنا يكون إننا مقصرين، ويبدأ هو يقول لنا نعمل إيه، وفي الحالة دي نبدأ نسمع كلامه مع إحساسنا طبعاً على طول بالتقصير.

وفي حالة إنك فعلاً سهرت النهاردة وعملت كل اللي قال عليه، هيكون من السهل عليه إنه يطلع أخطاء في التقرير أو طريقة الشغل وبرضو يحسسنا بالتقصير.

وفي حالة إنك عملت التقرير والشغل من غير ولا غلطة، يبقى عرف من اللي يتخاف منه في الشركة ويبقى يشوف هيكون معاه ولا عليه."

ليرد فهمي متعجباً من تحليل فكري: "طب يا فيلسوف، هتعمل إيه بقى؟"

صمت فكري برهة ثم استأنف الحوار قائلاً: "هعمل اللي هو مش متوقعه، وهقعد النهاردة لحد ما أخلص كل اللي هو قال عليه حتى لو مروحتش البيت. وبطريقة لما يشوفها يبقى مش عارف هيتصرف معايا إزاي."

قال فهمي مبتسماً: "طبعاً يا صاحبي، مش هتبيعني وهتعمل شغلي معاك."

ليرد عليه فكري: "ولا يهمك، بكرة إن شاء الله تلاقي شغلك على مكتبك." ثم ابتسم ساخراً.

قال فهمي: "حبيبي."

فكري بعد أن تركه فهمي: "الواد ده أكيد عبيط." ثم أردف: "باين اللعب مع المدير الجديد هيبقى ممتع."

فكري متحدثاً في الهاتف الجوال: "أيوة يا حاج، عامل إيه يا حجيج؟ بقولك يا باشا متعملش حسابي في الغدا النهاردة. أصل عندي شغل ولازم أسهر عليه عشان أخلصه وهتأخر كتير، مش عايزك تقلق عليا، ممكن أبات في الشركة. تمام يا حبيبي، سلام."

دقت الساعة الخامسة مساءً وبدأ الموظفون في الانصراف، عدا بعض الموظفين الجدد طبعاً.

فكري محدثاً فهمي: "فهمي، اقعد معايا شوية ساعدني ولما يجي ميعاد الدكتور امشي."

الساعة دقت الثامنة مساءً، ولم يبقَ غير فكري ومعه ثلاثة مهندسين يحاولون أن ينتهوا من المطلوب.

انطفأت معظم أقسام ومكاتب الشركة ولم يبقَ سوى القسم الذي يعمل به فكري.

الساعة العاشرة مساءً، الآن لم يعد غير فكري بالشركة والأمن بمدخل المبنى وفكري في الدور الثالث.

الساعة قاربت على الثانية عشرة منتصف الليل وقد انتهى فكري من معظم التقارير المطلوبة.

مجهوده قل وبدأ التعب يظهر عليه، وعينه بدأت تغلبها النعاس.

ليبدأ فكري محدثاً نفسه وقد بدأ الوهن والإرهاق يظهر عليه واحمرت عينه من كثرة النظر إلى شاشة الحاسب: "هروح الأوفيس أعملي قهوة ولا شاي."

خرج فكري من القسم الذي يعمل به واتجه إلى الأوفيس الموجود في آخر الممر.

فكري لنفسه وهو يتلفت يميناً ويساراً مروراً على أقسام أخرى بالشركة: "مفيش صريخ ابن يومين في الشركة رغم إنهم أكيد مطلوب منهم برضو شغل. مفيش حد قرر يتحدى الراجل ده غيري. إيه ده؟ إيه الصوت اللي ورايا؟ هو في حد ماشي ورايا ولا إيه ولا ده صدى صوت خطواتي أنا؟ إيه بس اللي خلاني أقعد لحد دلوقتي في الشركة والمبنى المريب ده؟

طول عمرك يا فكري عنيد، وعنادك ده عمره ما هيوصلك لحاجة بالعكس بيعملك مشاكل كتير.

بس سيبك، العند ده والتحدي والشغف هو اللي بيخلي الحياة ليها طعم، عامل زي الملح والشطة في الأكل."

فكري مبتسماً ويكمل الحديث مع نفسه: "الحمد لله وصلت الأوفيس والصوت اللي كان ماشي ورايا تقريبا برضو روح..."

داخل الأوفيس، وضع فكري بعض المياه في سخان المياه الكهربائي وبدأ صوت غليان المياه يزيد وهو ساند بيديه الاثنين على الرخامة. بها أشكال بألوان طبيعية وبدأت تلك الأشكال تتحول إلى أشخاص وأشباح وحيوانات. عينيه تغلق وتفتح بين الحين والآخر ثم يبدأ فكري بالتحديق حتى لا يغلبه النوم.

بعد وقت قصير وصوت الغليان قد انتهى وبدأ صوت طقطقة. فكري متحدثاً لنفسه: "إيه الصوت ده؟ الكاتل فصل والصوت شغال."

فكري لنفسه بصوت: "إيه ده... الصوت ده جاي منين؟"

بدأ فكري بالانتباه كأن التعب قد ترك جسده وهرب فجأة، وذلك بفعل زيادة الأدرينالين.

فجأة، الصوت اختفى وانطفأت الإضاءة.

فكري لنفسه: "إيه اليوم ده؟"

فتح كشاف الموبايل والوضع أصبح مرعباً. بدأ يتحسس السخان ليصب الماء الساخن وهو يطمئن نفسه ويقول: "تخفيف أحمال... تخفيف أحمال". ثم أردف: "أحلى كوباية شاي يا عم فكري."

ثم خلال ثوانٍ، أضاء المبنى مرة أخرى.

فكري مبتسماً: "تمام، الحمد لله النور جه عشان أكمل شغل... ماطلعش تخفيف أحمال."

ثم ظهر صوت الطقطقة مرة أخرى.

وفي خلال ثوانٍ، انطفأت الإضاءة مرة أخرى.

فكري لنفسه: "وبعدين بقى؟ هو الراجل اللي ماسك سكينة الكهربا النهاردة بيلعبني."

ثم بعد ثوانٍ، عادت الإضاءة وصوت الطقطقة معاً. تتبع فكري صوت الطقطقة حتى وصل للوحة كهرباء الدور بجانب الأوفيس ليكتشف وجود عطل بها. بدأ فكري يحرك إحدى مفاتيح اللوحة لأعلى فانطفأت الإضاءة مرة أخرى، ثم عادت بدون صوت الطقطقة.

ليقول فكري لنفسه بصوت: "بكرة لازم أبلغ صيانة المبنى عن اللوحة دي لتعمل مشاكل... الحمد لله إنّي عرفت المشكلة."

ثم بدأ فكري يتحرك إلى مكتبه حاملاً كوب الشاي، يرتشف منه البعض أثناء سيره بالممر حتى يستعيد بعض طاقته.

دخل القسم الذي يعمل به متوجهاً إلى مكتبه، يتفقد المكاتب الخالية مبتسماً ابتسامة سخرية ثم وقف مندهشاً ناظراً إلى مكتب الأستاذ الضوى يحاول أن يتأكد مما وقع نظره عليه.

فكري متحدثاً لنفسه بصوت واضح: "إيه ده؟ يا ليلة مش فايته... إيه الباب اللي ورا مكتب الضوى ده؟

جِه امتى؟ أنا كنت الصبح قاعد معاه ما شفتوش.

قاعد معاه إيه يا فكري؟ أنا لسة معدي من جنب المكتب وأنا رايح أعمل شاي ومكنش موجود!

يخرب بيت أم الشغل، أنا شكلي نمت على المكتب أو في الأوفيس وبحلم.

اصحى يا فكري، فكري اصحى يا بني، لو هتنام روح نام في بيتكم أحسن، نومة المكتب هتتعبك.

فكري، يا فكري...

يا دي النيلة... أمممم مصحتش ليه؟ طب أضرب نفسي كده."

بدأ فكري بضرب نفسه على وجهه أملاً في أن يستيقظ من حلمه، ثم عاد مرة أخرى محدثاً نفسه بصوت أعلى.

فكري يتحدث إلى نفسه:

"أي ده، أنا برضه بضرب نفسي في الحلم، طب أغمض عيني وأفتحها برضه ده بيحصل في الحلم. طب أخرج من الشركة، أكيد الحلم مش هيكمل عشان صعب يكون في صور للشارع مخزنة في عقلي. يا للهوي، إيه اللي أنا بقوله ده؟ هو أنا تايه كده ليه؟ طيب طيب، اهدى كده. أنا لو عقلي دلوقتي عايزني أفتح الباب، ممكن لما افتحه يخلص الحلم."

بدأت الأفكار تتضارب وتتنافر داخل عقله. ثم أردف فكري متحدثًا لنفسه مؤنّبًا: "الله يخرب بيتك يا فكري! مش كنت روحت زي الناس بدل ما تنام هنا ويحصل اللي بيحصلك ده؟"

اتجه فكري نحو الباب، وكان بابًا معدنيًا به إطار يتكون من أشكال تشبه المسامير النحاسية الضخمة، وكأنه باب من أبواب حكايات ألف ليلة وليلة. قبضته من النحاس مشغولة، وعليها رسمة رأس طائر تشبه النقوش الفرعونية.

أمسك فكري بقبضة الباب وبدأ يحركها في اتجاه اليمين، بدأت بعض المسامير بالباب تدور في اتجاه اليسار. وجملة ظهرت على الباب مكتوب عليها: (باب تحوت يختار مفتاحه).

جمع فكري كل قوته ليتمكن من إنهاء هذا الكابوس وفتح الباب، ليجد شخصًا يرتدي بدلة وطربوش أحمر، يبدو عليه الوجاهة وملامح وجهه يعرفها فكري جيدًا.

قال فكري، وعينه شاخصة من واقع المفاجأة والاندهاش: "إيه ده؟" ثم أردف: "الأستاذ الضوي، انت سكنت في الحيطة اللي ورا المكتب بتاعك كل ده عشان ملحقتش أتوبيس الشركة النهاردة؟"

دخل فكري في حالة هذيان لا يعرف سببها وكيف وصل إليها. ثم أردف فكري قائلًا، ولا زال تتملكه حالة الهذيان: "وكمان حلقت دقنك، وإيه الطربوش اللي انت لابسه ده؟"

وبدأ ينظر إلى ملابسه وتحسس جسده قائلاً: "وإيه دا كمان، أنا لبست الهدوم دي إمتى، وفين هدومي، وفين موبايلي؟ أنا بقيت عريض كده ليه؟ وامتى كل العضلات... وإيه الشنب ده؟"

ليبدأ الشخص الذي يظنه فكري الأستاذ الضوي قائلاً بنبرات صوت تحمل الاستعجال لأمر شديد الخطورة: "الضوي مين يا حلمي؟ أنا تهامي، انت لسه نايم وبتحلم ولا إيه؟ يلا بسرعة عشان نلحق ميعادنا."

قال فكري: "فعلاً أنا بحلم، هو أنا مش هقوم من النوم بقى؟ وأنا كمان شكلي اتغير في الحلم ليه؟" ثم نظر إلى من يظنه الضوي وقال: "وإيه اللي انت بقيت لابسه ده؟ حصل إمتى وميعاد إيه ده اللي بتقول عليه؟"

جذب تهامي فكري أو حلمي إلى الداخل أو الخارج، وبدأ في النزول على سلم درج من الرخام وتربزينه من الخشب في إحدى البيوت القديمة.

فكري متحدثًا لنفسه: "حلو سلم، أنا ساعات كتير ببقى بحلم وبعد كده بقع على سلم وأصحى من النوم وأنا رافع رجلي."

دفع فكري نفسه على السلم ليقع وقعة شديدة.

قال تهامي غاضبًا: "إيه يا بني ده؟"

قال فكري، وهو يتأوه من الألم: "برضه لسه نايم وبحلم، آه آه."

قال تهامي متعجبًا بغضب: "إيه يا بني، انت لسه نايم برضه؟"

قال فكري: "باين كده."

قال تهامي، وهو يساعد فكري في النهوض: "أول ما نروح المقر، هعملك كوباية شاي تخليك تفوق شوية."

قال فكري: "آه آه، أوممم، ماشي."

قال تهامي: "يلا عشان نلحق الجماعة إياها قبل ما يقتلوا ألنبي."

قال فكري متعجبًا: "اللمبي مين؟ عايزين يقتلوا محمد سعد ليه؟ ده رجل طيب، وبعدين انت لابس كده ليه؟"

قال تهامي متعجبًا من حالة فكري وما يقوله: "بقولك ألنبي، اللورد ألنبي، المندوب السامي البريطاني. يلا يلا، تعالى اركب."

خرج فكري من المبنى إلى الشارع، وزاد تعجبه واندهاشه. الشارع ليس هو الشارع، ولا المكان هو المكان، ولا الزمان هو الزمان.

فتح فكري فمه وآثر السكوت، وتهامي يجذبه ليركب الحنطور.

ركب فكري وبدأ متحدثًا لنفسه: "دلوقتي أنا لو فضلت أعند مع عقلي مش هعرف أطلع من الحلم ده أبدًا. أنا لازم أغير طريقتي. لازم أصدق الحلم وأتعامل معه إنه حقيقى فعلاً، وإن الباب اللي ظهر في الحيطة ده رجعني يجي مائة سنة، وإلا هفضل نايم ومش هعرف أخرج من الكابوس ده أبدًا."

وقف الحنطور في إحدى الشوارع أمام محل يبدو أنه حلاق.

قال تهامي بنزوله من الحنطور: "يلا يا حلمي، وصلنا."

ليرد فكري: "انت هتحلق؟"

قال تهامي: "آه، بقالى كتير محلقتش."

قال تهامي في دخول صالون الحلاقة: "إزايك يا منعم، عامل إيه؟ معندكش زباين... أحسن برضه."

قال منعم الحلاق: "تمام يا أستاذ."

ذهب منعم عند إحدى مرايات المحل وجذبها حتى ظهرت غرفة من خلفها، أدخل تهامي فكري إلى الغرفة التي تستخدم كمخزن بضاعة لزجاجات العطور الرجالية، وفي آخر الغرفة يظهر باب حديدي موضوع عليه قفل. فتحه تهامي وأدلف فيه، واتبع حلمي خلفه ليظهر بعد نزولهم ثلاث درجات نفق، ثم اتبع فكري تهامي السير بعد أن أضاء تهامي النفق.

النفق إضاءته ضعيفة، وأرضيته طينية رطبة، والحوائط من الطوب الأحمر. فكري لم يثير أي تساؤلات وكأنه يدخل المكان كل يوم، بدأ ينفذ ما فكر به بالضبط، وهو يُمني نفسه أن يكون في آخر هذا النفق نهاية لهذا الحلم الذي بدأ يشك أنه حقيقة.

يسير فكري داخل النفق، وهو يتحسس حائطه صلب البنيان ممتلئ بالرطوبة، تتقاطر منه مياه في بعض الأماكن. يوجد به دهليز إلى الأسفل، ثم دهليز إلى الأعلى، ثم ينتهي بباب معدني مصمت.

بدأ تهامي يطرق على الباب، وهو ينظر إلى عقارب ساعته. طرق مرة ووقف تقريبًا خمس ثوانٍ، ثم طرقه ثانية، ثم خمس ثوانٍ وطرقه مرة أخرى، وانتظر حتى مضت دقيقة ونصف تقريبًا، وطرق طرقة أخيرة. فتح بعدها شخص الباب، أدلف تهامي بالداخل ثم اتبعه فكري، ثم اتبعهما الشخص بعد غلق الباب الحديد.

المكان يبدو أنه بدروم أحد المباني، يظهر سلم معدني وسطه، وبدأ الجميع بصعود السلم المعدني الحلزوني الضيق. انتهى السلم عند فتحة في السقف مغلقة بغطاء معدني.

بدأ تهامى بالطرق بنفس الطريقة التي طرق بها أول مرة، فتح شخص آخر الفتحة فصعد الجميع. كان مكان الاجتماع صالة في منتصفها ترابيزة تجلس عليها سيدة. المكان كأنه بيت مهجور يغطى معظم أثاثه بقماش يملأه التراب.

بدأ تهامي الحديث قائلاً: "سلام عليكم يا أولاد، ده الباشمهندس حلمي المشرف بتاعكم."

فكري لنفسه: "تمام، دول لسه هيتعرفوا عليه."

ثم أردف تهامي معرفًا لحلمي: "نرجس طالبة في مدرسة المعلمين، والصفتى طالب في مدرسة الحقوق، واللي جاب المعلومة اللي هنشتغل عليها. أكرم شغال في مسابك بولاق وهيفيدنا كتير في موضوع السلاح."

فكري لنفسه: "سلاح؟"

سأل تهامي الصفتى: "ممكن تحكي لنا عن المعلومات اللي عندك؟"

الصفتى شاب من شباب المصريين في تلك الأيام، نحيف يرتدي طربوشًا أحمر وبنطلونًا بحمالات وقميصًا أبيض، وحول عينيه هالات سوداء، ويرتدي نظارة طبية. والد الصفتى من أعيان محافظة البحيرة، أرسله إلى القاهرة ليدرس في مدرسة الحقوق.

بدأ الصفتى يتحدث قائلاً: "عبد الفتاح عنايت طالب معايا في مدرسة الحقوق، نعرف بعض بس مش أصدقاء. اشتركنا مع بعض في ترتيب خروج ثورة تسعة عشر، واحتجنا وقتها سلاح وحد يدربنا عليه. عشان لما الإنجليز يضربوا علينا نار، نعرف على الأقل نخوفهم مننا."

"أكرم جاري كان عنده طريقة يجيب بها سلاح، تصرفنا في كام حتة سلاح، وعلمنا الأخ أكرم إزاي نستخدمه وقتها. ومن فترة صغيرة، طلب عبد الفتاح مني أجيب له ستة حتت سلاح. الفضول ركبني، وقعدت معاه وكلمته، وقلت له: ليه دلوقتي مشاكل؟ إحنا عندنا دستور وحكومة الوفد وبرلمان."

"قال لي عبد الفتاح: أنت بتحلم. الإنجليز مش هيطلعوا إلا بسلاح... بس مرضيش يقول لي أي تفاصيل عن العملية. قلت له: طيب ماشي، هتصرف وجبلك. وقلت: أسيب لنفسي فرصة أفكر."

"بعد كده، قلت لنفسي: إن أي عملية دلوقتي ممكن تكون حرج على حكومة الوفد، وممكن تضيع جزء من اللي إحنا وصلنا له بسبب ثورة تسعة عشر. وبعد كده قابلت الأستاذ تهامي، وحكيت له كل حاجة عشان يشور عليَّ أتصرف إزاي."

بدأ الشك يتسلل إلى عقل فكري محدثًا نفسه: "معقول ده حلم؟ معقول كل الوقت والتفاصيل والوضوح ده يكون في حلم عادي؟"

ليرد على نفسه قائلاً: "طبعًا ممكن يكون حلم. في الحلم، ممكن تكون الثانية سنة وتظهر تفاصيل أكتر من كده بسبب التعب والإرهاق. مفيش حل غير إنّي أكمل الحلم وما أعاندش مع عقلي."

ليقول فكري وهو متقمصًا دور حلمي: "بس إيه اللي عرفك إنهم عايزين يقتلوا اللورد ألنبي؟"

ليقاطع تهامي الصفتى قبل الرد على حلمي قائلاً: "احكي اللي عندك يا أكرم."

أكرم شاب ملامحه حادة ولكن تغلب عليها الطيبة في طريقة كلامه، مفتول العضلات، فارع الطول، عريض الجسم. يقطن في أحد الحارات الشعبية بالقلعة، ويعمل بإحدى ورش المسبوكات ببولاق.

يبدأ أكرم بالحديث قائلاً: "إبراهيم موسى باش خراط بالعنابر، أعرفه من أيام تسعة عشر برضو. جاء وكلمني على نفس السلاح وكمان اتنين قنبلة يدوية. ولما جاء الصفتى، قال لي ربط ما بينهما، وبعد كده عرفني بالأستاذ تهامي."

قال تهامي: "كلفت كل واحد منهم يراقب اللي يعرفه لحد ما عرفنا المكان اللي بيتقابل فيه، في مكتب الأستاذ شفيق أفندي منصور المحامي. ثم أردف: فكان لازم ندخل حد المكتب بأي طريقة عشان نعرف إيه العملية اللي هم عايزين يعملوها."

"نرجس كان لها دور مهم جدًا في جمع التوقيعات في تسعة عشر. وقلنا نستعين بعنصر نسائي عشان يكون مناسب للمهمة، وراحت لشفيق منصور وقالت له إنها محتاجة شغل وإن ظروفها صعبة جدًا وبتصرف على نفسها عشان تكمل تعلمها."

وافق لأنه فعلاً كان محتاج حد يكون في المكتب معه نتيجة انشغاله الفترة الأخيرة في المشاركة في تأسيس جماعة الأيادي السوداء.

نرجس فتاة تعشق العمل الوطني كما كان والدها يفعل قبل أن يستشهد ويتركها صغيرة. لتبدأ نرجس بالحديث: "بعد أسبوعين من شغلي معه، جاله واحد اسمه محمود أفندي إسماعيل، وكان معه اتنين شباب. عرفت بعد كده إنهم عبد الفتاح وعبد الحميد عنايت. حاولت أسمعهم من ورا الباب، معرفتش. رجعت قعدت مكاني على المكتب، وبعد ما نزلوا، دخلت المكتب وقلت: أبص على حاجة تفيدني في الموضوع. لقيت ورقة فاضية من مجموعة ورق فاضي، باين كان بيكتب عليهم أو بيرسم. خدها للأستاذ تهامي."

قال تهامي: "الورقة دي لما خدها شخبط عليها بالقلم الرصاص، وكانت المفاجأة إن فيها رسم كروكي لمقر المندوب السامي البريطاني، ورسمة أتومبيل مكتوب فوقه الساعة السادسة مساء. والورقة دي اهي يا حلمي."

"إيه يا حلمي، فكر معانا هنعمل إيه ونقدر نمنع الناس دي إنها تعمل مشكلة للحكومة في الوقت ده إزاي؟"

حلمي متحدثًا لنفسه: "يعني لما أكون مناضل ووطني في الحلم، أطلع أحمي المحتل وكمان إن اللي هحط الخطة وأنا هقول: يلا، السياسة عجيبة قوي. ساعات كتير تبقى لازم تقف وتحمي عدوك عشان اتفاق بينك وبينه مش عايز تخسره، عشان خطوة حصلت مكنتش تحلم بيها أو هدف بيعيد. اتحركت خطوة له."

"واللي يفكر هنا بوطنية بس هيكون سبب في خسارة للوطن اللي بيحبه."

ليدهمه تهامي ويقطع حديثه مع نفسه قائلاً: "حلمي.. حلمي، أنت معانا، هنعمل إيه؟" ثم أردف تهامي: "فكر معانا بصوت عالي لو سمحت."

قال حلمي: "معلش كنت بفكر، هنبدأ منين عشان نعرف ناخد قرار سليم؟"

"إحنا لازم نقسم نفسنا مجموعتين: مجموعة تراقب الأيادي السوداء عشان نعرف نحدد ميعاد العملية ونحاول نمنعها، ومجموعة تراقب مقر المندوب السامي وترصد كل التحركات اللي بتحصل فيه بالوقت، يعني بالساعة وبالدقيقة وبالثانية."

المجموعة الأولى: أنا ونرجس، والمجموعة الثانية: أكرم والصفتى. ولو في أي معلومات جديدة، هيكون مسؤول الاتصال بين المجموعتين هو الأستاذ تهامى. هنتحرك دلوقتى ونبدأ في المراقبة، ونتقابل كل يوم بعد الساعة الثامنة مساءً لنتناقش في تفاصيل الرصد.

العنصر الأهم في المجموعة الأولى للرصد هو شفيق منصور المحامي.

أما في المجموعة الثانية، العنصر الأهم للرصد هو طبعًا اللورد ألنبى. ثم صمت حلمى وتعجب من الأفكار التي انهمرت على لسانه كأنه خبير في العمل الوطني منذ عدة أعوام.

قال تهامى: "إيه يا حلمى وبعدين؟"

قال حلمى: "لا، كده كفاية في المرحلة دي. مش هنعرف إيه الخطوة الجاية إلا لما نجمع معلومات أكتر عنهم وعن العملية."

قال تهامى: "أه، صحيح، نسيت أعمل لك شاي يا حلمى. آسف، الموضوع مهم. خدنا مين هيشرب شاي معنا؟ أنا وحلمى."

وقف تهامى متحركًا إلى أحد ممرات الصالة، وتحرك معه أكرم، بينما ذهب الصفتى إلى الحمام.

جلس حلمى مع نرجس، يختلس بعض النظرات على استحياء إلى عينيها اللتين يمتلئان بالحياء الأخاذ الذي يخطف القلوب من أول نظرة، وإلى وادٍ أخضر يفوح بالطيبة والحنان. وبدأ بالتحدث أولًا.

قال حلمى: "خايفة؟"

لترد نرجس بصوت منخفض: "لا، أبدًا، أخاف زي وأنا وسطكم."

قال حلمى: "إيه اللي يخليكي تدخل في المواضيع الخطرة دي؟"

نرجس، فتاة مصرية أصيلة، تحافظ على التقاليد الموجودة وقتها، من لباس محتشم أسود وغطاء للرأس وبيشة بيضاء. كانت تتحدث إلى حلمى دون أن تنظر إليه. تمتلك عيونًا خضراء ووجهًا خُمريًا، دائمًا محلا بحمرة الخجل وابتسامة بسيطة.

قالت نرجس: "من ساعة تسعتاشر، اتعلمنا كلنا الوطنية. ولما نجحنا في إصدار دستور تلاتة وعشرين، حسينا إننا الشعب بكل طوائفه كان صاحب النجاح ده. من وقتها، الناس اتقسمت: جزء عاش حياته عاديًا وجزء قال إننا لازم نكمل. دي الخطوة الأولى لبلد قوية تقاوم الاحتلال. وللأسف، جزء ما كانش عنده الإيمان الكافي بالسياسة ولا إن دي أول خطوة ولازم نكمل فيها، وإن الطريق الوحيد للانتصار هو السلاح، بس من غير سياسة."

حلمى لنفسه: "ياريت الجيل اللي أنا عايش فيه يكون بيفكر كده، بس للأسف عناصر الإلهاء بقت كتير أوي: تليفزيون وسوشيال ميديا وغيره، وغيره، خلت الشباب، اللي هو أهم عنصر من عناصر التقدم، لا يؤمن بالوطنية ولا الكفاح الوطني ولا التضحية من أجل الوطن."

دخل تهامى قائلًا: "أحلى شاي لأحلى أولاد. أنا كل ما أشوفكم وأقعد أتكلم معاكم أتأكد إن البلد هتنتصر وتقضي على الاحتلال في يوم من الأيام. ثم أضاف: "لا، مش بس الاحتلال، وكمان هتقضي على التخلف والأمية والفساد، وكل شيء بيعطل البلد دي إنها تطلع لقدام. يلا، اشربوا الشاي عشان الكل يروح وينام. عندنا شغل كتير بكرة، والكل يروح على الموقع المحدد له زي ما اتفقنا."

ثم أضاف تهامى قائلاً: "نرجس، أنتِ هتكوني في الوردية الأولى من تسعة صباحًا، وأنت يا صفتي كمان، الورديه دي هتكون بتاعتك. وأنت يا حلمى، يلا عشان أوصلك في طريقي."

قال حلمى: "تمام، يلا بينا."

خرج حلمى مرافقًا تهامى بنفس طريقة الدخول.

في الشارع، أوقف تهامى حنطورًا وقال له: "جامع الكيخيا، ياسطى."

حلمى لنفسه: "جامع الكيخيا... يعني حي الأزبكية."

تحرك الحنطور حتى وصل بجوار جامع الكيخيا. لينبه تهامى حلمى قائلاً: "أنت وصلت يا حلمى، بيتك. يلا بكرة إن شاء الله ميعادك مع نرجس أربعة مساءً عشان تستلم منها. متنساش."

قال حلمى: "تمام."

ثم أضاف حلمى لنفسه: "تمام إيه.. أنا مش عارف أي حاجة عن المكان اللي هاروحه بكرة. ينهار أبيض، هو هيكون بكرة هنا أصلًا؟"

أخرج تهامى ورقة مكتوبًا عليها العنوان الذي سوف يذهب حلمى إليه غدًا، وقال: "امسك دي، العنوان اللي هتكون موجود فيه بكرة الساعة أربعة."

نزل من الحنطور وتوجه إلى مدخل المبنى الذي أوقف تهامى الحنطور أمامه، وهو نفس المكان الذي خرج منه قبل ساعات. لم يكن يعرف هل سيعود إلى مقر عمله أم حتى سيستيقظ من هذا الحلم الذي أصبح طويلًا بما فيه الكفاية.

داخل المبنى، كان السلم أنارته ضعيفة. صعد حلمى السلم وهو خائف من هذا المجهول. هل سوف ينتهي الحلم بفتح الباب الذي خرج منه منذ ساعات قليلة؟

صعد على السلم وكانت جميع درجاته من الرخام، والتبزينة من الخشب. كلما تمسك بها وهو يصعد، كانت تهتز.

وصل إلى الباب الذي خرج منه ولم يجد مقبضًا مرسومًا عليه رأس طائر.

بدأ يفكر كيف له أن يفتح هذا الباب وماذا سيكون وراءه، وهل ما يحدث له حقيقة أم حلم؟ ولكن أين المفتاح الذي سوف يفتح الباب؟

فكر لنفسه: "يعني دا حلم، أكيد المفتاح معايا."

عندما وضع يده في جيبه، وجد مفتاحًا أخرجه، وقبل أن يضعه في الباب، انطفأ نور السلم. تحسس مكان المفتاح وتمكن من وضعه في القفل، وأدار المفتاح، وأغمض عينيه، وقلبه كان ينبض بصوت يسمعه أذنه، ودفع الباب.

دخل بحذر، يتلمس خطواته، يمني نفسه أن يستيقظ من هذا الحلم أو يرى مكتب الأستاذ الضوى، ولكنه لم يستيقظ، ولم يرَ سوى الظلام. بدأ يسمع بكل خطوة صوت أرضية خشب تدخله في حالة من الرعب المؤقت حتى ينتهي الصوت ويبدأ الآخر مع الخطوة التالية. تحسس الحائط بجانب الباب ليجد مفتاح إنارة ليضيء المكان، وإذا هي إحدى الشقق السكنية القديمة بسقف عالٍ وأرضية من الخشب. بدأ يتحسس المكان بهدوء خوفًا من وجود شخص آخر يشاركه هذا الحلم أو هذه الحياة.

تفحص كل مكان في الشقة كأنه لص يتأكد من عدم وجود أحد قبل البدء في السرقة. الصالة فيها صالون من الطراز القديم. وبدأ فكري محدثًا نفسه: "ياترى، حد عايش معايا في الشقة دي وفي الحلم أو الحياة دي؟" ثم أضاف: "ترتيب الشقة والعشوائية اللي فيها بتقول غير كده، الكتب مرمية في كل حتة، والهدوم مش متعلقة، والشقة مليانة تراب."

الصالة مُعلق فيها صور بالأبيض والأسود لبعض زعماء العصر.

سعد زغلول ومحمد فريد وطلعت حرب، ياسلام عليك يا حلمى أفندى، وطنى وطنى يا عَنى. جلس فكرى على الكرسي المقابل للصور، يفكر: لماذا لم يعد السواد الأعظم من الناس في عصره يهتم بمصلحة الوطن؟ الكل أصبح لا يهتم إلا بنفسه، بحياته هو فقط.

كيف تغيرت هوية شعب بأكمله؟ أين هذا الهم الذي كان يسيطر على قلوب الناس؟ هنا، كان يسيطر على قلوبهم لدرجة أنهم بدلًا من أن يضعوا صورهم الشخصية على الحائط، يضعون صور زعمائهم الذين يشاركونهم هذا الهم.

إنهم يشاركون في الأحداث ويؤثرون فيها، ويعيشون أحلام الوطن حتى وإن لم تتحقق كل أحلامهم. فعلاً كما كنت أقول دائمًا: (إن لم تدِر أنت أمور أحلامك، سيكون هناك آخرون يديرونها).

وفي ظل هذا التفكير، أتت حقيقة من حقائق هذا الكون التي يجب أن تحدث في خيال أو حقيقة... النوم. استغرق حلمى في نوم عميق، وجسمه مرتخٍ على الكرسي، ويده متدلية إلى الأرض، وقد انحنت رأسه ناحية اليمين.

ياه، ما هذه الراحة التي لا تضاهيها راحة أخرى؟ النوم إنه نعمة من نعم الله علينا، وكأنه شخص طيب ذو لحية بيضاء برداء أبيض، يأخذك بيده الدافئة من دوامة الفكر التي لا تنتهي، ويدخلك إلى عالم الهدوء والسكينة لتفرغ كل همومك ومتاعبك فيه.

وفي ظل هذه السكينة، تفتح شاشة تعرض حلمًا جميلاً لفتاة خمرية البشرة، تلبس رداءً أبيض فضفاضًا، وعلى رأسها غطاء أبيض، من حول وجهها يوجد هالة ضوئية تخطف الأنظار، والبسمة لا تترك وجهها اللامع أبدًا. تسير في حقول كلها زهور بجميع الألوان، ورغم هذا المنظر الخلاب، تظل هي أجمل ما في الحلم.

الحلم الذي تحولت فيه جميع الزهور حولها فجأة إلى اللون الأحمر، ثم يأتي صوت كإطلاقات الرصاص: بوم، بوم، بوم. استيقظ حلمى من نومه، وإذا بشخص ما يطرق الباب: بوم، بوم، بوم.

استيقظ فكرى فزعًا من نومه، قائلاً: "مين... مين؟" الشخص: "افتح يا حلمى أفندى، إحنا بعد الظهر." حلمى متجهًا إلى الباب قائلاً: "هو الحلم ده مش هيخلص؟" ثم فتح الباب.

قال حلمى بعد أن فتح الباب: "انت مين؟" قال الشخص: "إيه يا أستاذ حلمى، أنا المكواجى اللى تحت، وصانى الأستاذ تهامى أخبط عليك الساعة اتنين." قال حلمى: "أه، أه، شكرًا."

أغلق حلمى الباب، وهمّ لدخول الحمام سريعًا حتى لا يتأخر على الميعاد المتفق عليه. اغتسل سريعًا، وفتح الدولاب، وجد بعض الملابس المناسبة له، ووجد مسدسًا وعددًا من الطلقات النارية تم إخفاؤها وسط الملابس، وقرر أن يأخذها معه.

تجهز وخرج، وركب وسيلة المواصلات الشائعة في هذا العصر: الحنطور. حلمى متحدثًا لنفسه أثناء سير الحنطور: "أنا إيه اللى بعمله ده؟ وهفضل كده كتير؟ أنا مش عارف بعمل إيه ولا إيه اللى جابني هنا."

ليرد على نفسه ساخرًا: "يعني كنت هناك عارف أنت بتعمل إيه ولا ماشي ورايح فين؟" ليقطع سائق الحنطور تفكيره قائلاً: "وصلنا يا أستاذ. هم حلمى بحساب الحنطور وهو يقول: "تمام، شكرًا."

حلمى متحدثًا لنفسه بعد نزوله من الحنطور: "إيه ده، هوانا شغال إيه في الحلم ده؟ إيه وطنى بس؟ أكيد عندي شغل."

وقف حلمى أمام مكتب شفيق منصور المحامى حتى خرجت نرجس، ودون النظر له، رحلت. طال وقوف حلمى، فوجد مقهى بالقرب من المكتب، جلس عليها حتى جاءت التاسعة مساءً، وخرج شفيق، وكان يملك سيارة استقلها وتحرك.

وكان حلمى مستعدًا لذلك، ودفع ثمن المشروبات على القهوة، وأوقف سيارة أجرة، وجلس ينتظر خروج شفيق، وتحرك خلفه. حتى وصل شفيق بسيارته إلى حي السيدة زينب، ترك سيارته، وأكمل سيرًا على قدميه.

دخل إلى شارع ضيق ثم إلى حارة، ومنها إلى حارة أخرى، يتلفت يمينًا ويسارًا ليُتأكد أنه لا أحد يتبعه. دخل إلى بيت يتكون من طابقين، اتبعه حلمى حتى تأكد أنه صعد إلى الطابق الأول. خرج من البيت، فإذا بالغرفة التي بالجانب الأيمن بالمبنى تُضيء.

كان يوجد عقار نصف متهدم بجوار الغرفة المضيئة، يتكون من ثلاث طوابق، لكنه غير مكتمل بسبب التهدم. دخل حلمى البيت المتهدم، ولم يكن هناك أي إضاءة لدرجة أنه لم يرَ حتى يديه، وهو لا يمتلك أي وسيلة إنارة.

تمنى حلمى في هذا الوقت أن يكون من المدخنين حتى يمتلك علبة كبريت، لكنه تذكر أنه يمتلك شيئًا أهم... عقله. ذهب إلى الجانب الأيمن من مدخل البيت المتهدم، وتحسس الحائط حتى وجد فتحة اعتقد أنها باب لدخول الشقة في الدور الأرضي. هيأ نفسه لاستقبال السلم، رفع قدميه بمقدار لا يتجاوز العشرة سنتيمترات، وبالفعل استقبل بداية السلم، وهو لا يعلم هل السلم مكتمل إلى الطابق الأول أم لا، كان قد اعتمد على الصوت الخشب الذي كان مصنوعًا منه السلم، فإذا زاد صوت الخشب يجب أن يتراجع فورًا.

الصق حلمى ظهره بالحائط المثبت به السلم، وفجأة انتهى السلم ولم يصل إلى الطابق الأول. توقع في الظلام الدامس أن يكون هناك بعض الدرجات المفقودة، ولكن كيف يتأكد من هذا وهو لا يرى سوى الظلام؟

انحنى إلى أسفل برفق، والتقط بعض الحصيات من على الدرج، ورمى إحداها أسفل قدمه، ولكن أمامه بقليل. كان صوت الارتطام بعيدًا، ثم رمى حصة أخرى على مسافة قدرها خمسون سنتيمترًا تقريبًا، كان الصوت مشابهًا للمسابقة.

ثم رمى حصة أخرى قدرها مترًا تقريبًا، لكن سمع صوت الارتطام قريبًا، وقريبًا من صوت ارتطام حصة بخشب. تحدث حلمى لنفسه قائلاً: "لازم في الحالة دي أنط مسافة ما تقلش عن متر ونصف."

رجع إلى الوراء، وقفز، وكاد أن يسقط، ولكنه تشبث واستلم درجات السلم مرة أخرى، وأكمل حتى وصل إلى الطابق الأول، وجد فتحة في السقف نتيجة التهدم أضأت له المكان حيث كان القمر منتصفًا. اقترب من التراس الخاص بالغرفة المضيئة بالمبنى المجاور وهو منحني إلى أسفل، وتسلل إلى المبنى ثم إلى باب التراس بهدوء وجلس في وضع القرفصاء، ثم وضع أذنه على الباب. كان هناك شخصان يتحدثان داخل الغرفة.

قال الشخص الأول: "ماينفعش كل شوية نتقابل كده، ممكن تحصل لي مشكلة. ما تنساش إني محامٍ متسيط."

اتضح لحلمي حينذاك أن هذا هو صوت شفيق منصور.

ردّ الشخص الآخر قائلاً: "كان لازم نتقابل، وسيلة الاتصال مش هتبقى كفاية."

قال شفيق: "تمام، تمام، قولى إيه الحاجة المهمة اللي جايبني علشانها."

قال الشخص: "جالنا من الباشا تعليمات، لازم نغير الشخص اللي مفروض نخلص عليه. الشخص الجديد هيكون السردار لي ستاك، الحاكم البريطاني للسودان، وعايز ده يحصل في ظرف أسبوع بالكتير."

قال شفيق: "أسبوع! إحنا لسه مش جاهزين، وبعدين ده شخص جديد وعايز ترتيبات جديدة."

رد الشخص: "دي الرسالة وأنا وصلتها لك، وانت حر."

قال شفيق: "تمام."

كان شفيق يهم بالرحيل عندما طرق شخص الباب طرقات مميزة، وكأنها علامة تم الاتفاق عليها. قام الشخص بفتح الباب، لكن لم يدخل أحد. فجأة وجد حلمي شخصًا آخر قادمًا من خلفه بنفس الطريقة التي وصل بها هو إلى التراس. وضع الرجل مسدسًا على رأس حلمي وأدخله إلى الغرفة حيث كان شفيق. قاموا بتفتيشه وأخذوا المسدس منه، ثم دخل الشخص الذي طرق الباب، ليصبح حلمي محاطًا بأربعة رجال.

التفت شفيق إلى الشخص الذي كان يجلس معه وقال بغضب: "مش قولتلك بلاش نتقابل؟ أحسن."

قال الشخص الذي دخل من الباب: "إحنا شفنا الواد ده نطّ على التراس لما كنا بنأمن الحارة ليكم من البيت اللي قدامكم."

رد شفيق ساخرًا: "بتأمن إيه؟ ووصل لحد هنا؟ يا اللي بتأمن... ماشي، حسابي معاكم بعدين."

التفت شفيق إلى حلمي وقال بغضب وهو يقبض حاجبيه: "انت مين؟ يلا من البوليس السري ولا خاين مع الإنجليز؟"

لم يحرك حلمي ساكنًا من الصدمة سوى بابتلاع ريقه.

قال شفيق مهددًا: "هتتكلم ولا نخلص عليك؟"

حلمي لا يعرف ماذا يقول، وخيم الصمت والخوف على ملامح وجهه.

قال شفيق للشخص الذي كان يجلس معه: "خده انت والرجالة وخلصوا عليه بعيد. لو سمع حاجة هنروح في داهية كلنا."

حلمي لنفسه: "يا ترى لو مت هنا هينتهي الحلم ولا هتنتهي حياتي؟".

لكي لا يلفتوا الأنظار، أخذوا حلمي دون تقييده، وأحدهم يضع المسدس في ظهره. كان هناك شخص على يمينه، وآخر على يساره، ورجل خلفه. كانت سيارتهم خارج الحارتين وتنتظرهم بالسائق، بينما كان أمام مخرج الحارة مقهى ممتلئ بالناس.

بدأ حلمي يحدث نفسه: "أنا كده ميت وكده ميت... الشخص اللي معاه المسدس طويل وعضلاته كبيرة، لكني ممكن أتحكم في دراعه وأخد منه المسدس. متنساش يا فكري أنك دلوقتي حلمي، جمد قلبك وما تخافش."

انتظر حلمى حتى اقترب من السيارة. تحرك الشخص الذي كان خلفه ليركب بجوار السائق، وتحرك الشخص الآخر ليركب من الجانب الآخر للسيارة وهمّ حلمي بدخول السيارة، لكن في اللحظة الأخيرة وضع حلمي قدمه على دواسة السيارة متظاهرًا بالركوب، ثم دفع نفسه إلى الخلف ضاربًا برأسه ذقن الشخص الذي يملك السلاح، وفتح ذراعه الأيمن، ثم ضمّه بقوة على ذراع الشخص وأداره بصعوبة. تمكن من أخذ السلاح وأطلق النار على قدمه فأصابه.

هرب حلمي إلى ممر مقابل للحارة، وتبعه الرجلان الآخران والسائق بحذر خوفًا من السلاح الذي بيده. خطط حلمي للهروب إلى ذلك الممر الضيق ليمنعهم من استخدام السيارة.

بسبب إطلاق النار، بدأت صفارات البوليس تتعالى. كان الممر الذي دخل فيه حلمي مليئًا بالمنحنيات، وكان يجري بكل ما يملك من قوة، لكن المفاجأة كانت أن الممر انتهى بحائط سد.

عند نهاية الحارة كان هناك جدار به فتحة صغيرة على ارتفاع مترين تقريبًا، عليها ضلفة معدنية تُغلق بباب وترباس خارجي. دخل حلمي المكان ووجد رائحة كريهة تملأ المكان. لم يجد ترباسًا من الداخل، فوقف خلف الباب وثبّت قدميه، مستعدًا لمقاومة محاولة اقتحام رجال شفيق.

كانت أصوات صفارات البوليس تقترب، ثم سمع حلمي صوت الترباس الخارجي يُغلق، وأُشعلت شعلة نار من الفتحة الصغيرة. عندما أنارت النار المكان، اكتشف حلمي أنه داخل مستوقد يستخدم لطهي الفول المدمس بالمخلفات.

نظر حلمي إلى النار التي بدأت تنتشر في المستوقد، وكأنها تتسابق للوصول إلى كل ركن.

وقف حلمي مذهولاً، المستوقد عرضه حوالي ثلاثة أمتار وطوله ثمانية أمتار، وحوائطه سوداء. شردت أفكاره فيما سيحدث له. التفت إلى الباب وبدأ يطرق عليه بجنون، على أمل أن يسمع رجال البوليس الطرق.

صرخ: "افتحوا الباب!" ثم صمت لثوانٍ قليلة. صرخ مرة أخرى: "افتحوا الباب!" ثم صمت لوقت قصير. بعد دقيقتين، صرخ كأنها صرخته الأخيرة: "افتحوا الباب!"

حاول أن ينبطح على الأرض ليقرب أنفه من أسفل الباب، لكنه لم يستفد شيئًا، فقد امتلأ المكان بالدخان. أسرع إلى آخر الغرفة، يتحسس الحائط بحثًا عن مخرج، لكن الرؤية كانت ضبابية. بدأ حلمي بالسعال، ووجهه تحول إلى اللون الأزرق. حاول العودة إلى الباب مرة أخرى، لكنه سقط على الأرض وبدأ يزحف على يديه وقدميه، ثم سقط أخيرًا منبطحًا على الأرض وبدأ يزحف على الأرض حتى وصل إلى الباب، رفع يديه إلى الأعلى ليطرق الباب، ثم سقط على الباب محدثًا صوتًا لا يكاد يُسمع. حلمى لنفسه، وقد دخل في هذيان من قلة الأكسجين: "ياترى يا فكرى هتموت ولا هتصحى من الحلم."

أي حلم وأي حياة وأي موت وأي حقيقة وأي خيال وأي يقين... ثم تسلل بعض الهواء النقي إلى أنفه، بدأ فكرى يلتقط أنفاسه مرة أخرى، ويفتح عينيه قليلاً، ثم يغلقها، وعقله يتساءل عن مصدر ذلك الهواء.

فكرى لنفسه وهو بين اليقظة والإغماء: "تيار الهوى ده جاي منين؟" ثم رفع يده ليتحسس الباب، إذ بسطح الباب قد تغير وظهرت به بعض النقوش البارزة أسفل الباب، بعد أن تحسسها قال فكرى لنفسه: "المسامير النحاسية الكبيرة."

أخذ فكرى نفسًا عميقًا من تيار الهواء الصغير الذي أتى من أسفل الباب، وجذب نفسه إلى أعلى مرتكزًا على المسامير النحاسية الضخمة، ثم استخدم باقي إطار المسامير على يسار الباب حتى أقام نفسه على ركبتيه.

تحسس الباب حيث إنه ظل بين اليقظة والإغماء، فوجدها أخيرًا هي الأكرة التي حُفرت عليها رأس الطائر. بدأ يديرها يمينًا فلم يفتح الباب، أدارها مرة أخرى، لم يفتح أيضًا، حتى قرر إدارتها يسارًا، فبدأت المسامير تدور في اتجاه اليمين .

بدأ بسحب الباب فلم يستجب، فاندفع الباب في اتجاه الخارج بسبب وزن حلمى، فأصبح لا يملك التحكم فيه بسبب عدم قدرته على التنفس. فوجد نفسه بجوار مكتب الأستاذ الضوى، وسحب نفسه في اتجاه الهواء البارد كي يلتقط أنفاسه، ولكن كل ما حوله كان غير ثابت ويدور بشكل سريع.

انغلق الباب بعد انتقاله من الداخل إلى الداخل، ولم يستطع النهوض، فبدأ يمشي على يديه وركبتيه حتى أعاقه مقعد المكتب الذي ارتكزت عليه. نهض وجلس عليه، ثم وضع رأسه على المكتب أمامه وغاب عن الوعي من التعب.

صباح اليوم التالي، أتى فهمى إلى مكتب فكرى وبدأ في إيقاظه: "فكرى، فكرى، فكرى، اصحى يا فكرى، إيه اللى نايمك كده بس على المكتب؟"

فهمى: "وياترى خلصت اللى أنت عاوزه ولا سبتها ونمت على مكتبك؟"

قال فكرى وهو يستيقظ: "إيه إيه، ابعد عنى يا عم، عايز أنام تعبان، سبنى أنام شوية."

قال فهمى متعجبًا: "أنام؟ ياعم، قوم الساعة تسعة الصبح، قوم ابصم ولا روح لو تعبان."

بدأ فكرى في الاستيقاظ ثم قال: "أه، أه، أه، ماشى ماشى، الحمد لله، الحمد لله، أخيرًا. تمام، تمام، الحمد لله، أنا لبسى تمام، وأنا تمام. يا ده كان حلم، حلم ده كان كابوس مهبب، وبالأخص في الآخر، الحمد لله، الحمد لله."

خلاص، أنا هقوم أغسل وشي، وأبصم تكون جبتلنا كوبيتين شاي.

قال فهمى: "هو إيه اللى تمام ده؟ خلصت الشغل ولا لسه؟"

هم فكرى في النهوض قائلاً: "ملكش دعوة، أنت بس وجيب الشاي."

قال الأستاذ الضوى بصوت عالٍ يسمعه الجميع: "إيه ده؟ إيه التهريج ده يا جماعة؟ إيه ده؟ من اللى وقع كوبية الشاي دى على الورق اللى على المكتب بتاعى؟ دى مستخلصات برجعها، حرام عليكم!"

فكرى ينتبه ويتذكر كوب الشاي الذي كان بيده عندما رأى الباب العجيب، وبدأ يدخل في حيرة مرة أخرى.

ويكمل الأستاذ الضوى قائلاً: "وبعدين الجهاز مش عايز يفتح ليه؟ إيه اليوم ده؟"

فهمى متحدثًا للضوى: "معلش، في مشكلة في اللوحة الكهربائية بتاعة الدور، والصيانة شغالة فيها."

فكرى واقفًا لا يتحرك يفكر فيما قاله الأستاذ الضوى وفهمى.

قال فهمى: "إيه يا ابني، أنت واقف كده ليه؟ أصحى يا ابني، فوق، بقولك روح اغسل وشك."

بدأ فكرى يتحرك إلى الحمام، ومر أمام مكتب الأستاذ الضوى، ناظرًا إلى الورق الذي وقع عليه الشاي، ثم حرك نظره إلى الحائط وراء المكتب، والأستاذ الضوى ينظر إليه ويقول: "صباح الخير يا فكرى، متعرفش من اللى عمل العملة السودة دى؟"

فكرى لم يرد، وبدأ في التحرك مرة أخرى إلى الحمام، ويتذكر كل الأحداث التي مر بها في الحلم.

وقف يغسل وجهه وينظر إلى المرآة، ثم غسل وجهه بشدة وكأنه يريد أن يتأكد أنه قد استيقظ.

ثم نظر إلى المرآة مرة أخرى وقال لنفسه: "ياترى أنت دلوقتي فكرى ولا حلمى."

وتحدث ساخراً من حاله: "ولا فهمى ولا نظمى ولا رسمى..."

"لا، لا، لا..... أنا لازم أقعد وأركز وأكتب كل اللى حصل لي إمبارح في الحلم، وأبدأ أفكر فيه وحدة وحدة."

ورجع مسرعًا إلى مكتبه، ثم جلس، وأتى بأوراق وقلم، وبدأ يكتب كل ما حدث قبل الحلم وفي الحلم وبعد الحلم.

قال فهمى: "هنعمل إيه النهاردة يا فكرى مع المدير الجديد؟"

قال فكرى وهو لم يتوقف عن الكتابة: "التقرير بتاعى أهى، قدمك وديها له، وتقريرك للأسف ملحقتش أعملها، أنا آسف، سامحنى."

قال فهمى: "فكرى، أنت بتعمل إيه؟ وإيه اللى بتكتبه ده؟"

قال فكرى محاولًا أن يصرف فهمى عنه: "فهمى، خد التقرير ومشى، ومش عايزك تكلمنى النهاردة خالص."

تركه فهمى متعجبًا، وأخذ التقارير وانصرف.

وبدأ فكرى يبحث على جوجل عن سردار الجيش المصري، الجينرال الإنجليزي لى ستاك، آخر ما سمع اسمه قبل أن يحبس في المستوقد.

فوجد بعض المقالات التي تسرد بعض الأحداث المتعلقة بالأمر، وكان فيها الآتي:

كان ستاك يؤيد بقاء مصر محمية بريطانية، ووقعت عملية اغتياله يوم ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ في نحو الساعة الثانية بعد الظهر، بينما كان عائدًا من مكتبه بوزارة الحربية إلى داره بحي الزمالك. أطلق عليه خمسة أشخاص الرصاص كانوا متربصين له، وتم القبض على كل من شارك في العملية بعد خطة محكمة وضعها عميل سري للبوليس يدعى محمد أفندى نجيب الهلباوى، تقاضى عليها مكافأة قيمتها ١٠ آلاف جنيه. كان ضمن صفوف المناضلين، واشترك في إلقاء قنبلة على السلطان حسين كامل عام ١٩١٥، وقبض عليه، وقضت المحكمة بإعدامه، وتم تخفيف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة، ثم الإفراج عنه ليصبح عميلًا سريًا للبوليس.

خضع المتهمون للمحاكمة أمام محكمة الجنايات، واستمرت الجلسات ستة أيام فقط، وقررت إحالة أوراقهم إلى المفتى.

وفي يوم ٧ يونيو ١٩٢٥، صدر الحكم بإعدامهم، ونفذ في سبعة فقط يوم ٢٣ أغسطس، لأن المتهم الأول عبدالفتاح عنايت تغير حكمه إلى الأشغال الشاقة المؤبدة بأمر ملكي.

ظل المتهمون ينتظرون الموت ٨٧ يومًا، وكان موعد الشنق في السابعة صباحًا، ولم يحضر إلا عدد قليل جدًا من الصحفيين. وأول من سيق إلى حبل المشنقة كان عبدالحميد عنايت، الذي قال: "لا يهمني أي شيء، قمت بما هو واجب علي خير قيام، لا يهمني الإعدام، أنا قتلت ٣٥ إنجليزيًا، وأوصى بما تركه لإخوته، ثم قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، رب أدخلني جنة النعيم."

بعد أربعين دقيقة، جاءوا بشفيق منصور، المحامي وعضو مجلس النواب عن دائرة باب الشعرية وقت الحادثة. فبكى وانتحب، وظهر منهار القوى تمامًا، شاحب اللون وفي حالة ضعف متناهٍ. ولما سئل عما يطلب، لم يجب، ولكنه بمجرد أن أدخلوه غرفة الإعدام صرخ: "يا باشا، عايز أشوف أهلي، يا باشا اعمل معروف، عايز أشوف أختي، أنا في عرضك." وظل يبكي، وكان هو الوحيد بين السبعة الذي بكى وظهر بهذا المنظر المتخاذل.

وكان الثالث هو إبراهيم موسى، وظهر قويًا وطلب أن يرى أهله وأولاده. وصرح بأنه عليه خمسة جنيهات لأحد أصدقائه، وهو محمد بيومي، وثلاثة جنيهات لشركة المخابز، وقال إنه يدين مصلحته ببعض المبالغ، ويطالب بإعطائها لأمه، ثم قال: "أنا قلبي مطمئن بالإسلام"، وطلب تسليم جثته لأهله وأن يدفن بقرافة المحمدي، وأوصى أن يكون الوصي على أولاده ابن خالته الشيخ رجب.

أما علي إبراهيم محمد، فظل ثابتًا، وذكر ديونه وأوصى أولاده أن يتمسكوا بالدين، ويتبرأوا ممن يخالف دين النبي، ثم نطق بالشهادتين وظل يحرك شفتيه بالتلاوة دون أن يسمع صوته. أما راغب حسن، فانهار دون أن يبكي، وأخذ يصيح: "أهلي، أهلي، أشوفهم أنا ما شفتش ابني، ده حرام، أنا مظلوم." فقيدوا قدميه، ولكن ذلك لم يمنعه من الصراخ والقول: "أنا ذنبي في رقبة كل من ظلمني." أما محمود راشد فأقبل على حبل المشنقة في غاية الهدوء، والابتسامة لا تفارقه. وعندما تُلي عليه الحكم، قال مبتسمًا: "الله يعلم أني بريء، وأنا لم أتفق على قتل أحد، وأنني ما قصدت إلا ابتغاء وجه الله الكريم." وعندما سئل: ماذا يريد؟ قال: "ورقة زواجي مغلوطة، والمأذون أخطأ التاريخ، وطلبت منه تصحيحها، فأرجو أن يصححها من سنة ١٩٢٢ إلى ١٩٢٣." وطلب أن يدفن مع والده، ونطق بالشهادتين، وقال: "الحمد لله رب العالمين، وإنا لله وإنا إليه راجعون، أسألكم السماح، أسألكم السماح، إنا لله وإنا إليه راجعون."

نقلت الجثث إلى سجن مصر لتشريحها ثم تسليمها إلى أهلها لدفنها، واشترط عليهم أن يتم الدفن دون احتفال.

فكرى لنفسه بعد قراءة المعلومات التي وجدها على جوجل: "هو الواحد ينفع يحلم بحاجة حصلت في الماضي وما يكونش قرأ عنها قبل كده بالتفاصيل دي؟ ولا ممكن أكون قرأت ونسيت؟"

وبعدين في الحلم، إن كنت المفروض أمنع الناس دي أنهم يقتلوا الراجل الإنجليزي، رغم أنه كان محتل، يعني دي أقل حاجة تحصل معهم.

الغريب أن اللي قتلوا الإنجليزي ده، رغم أنهم عندهم كلهم نفس الحقيقة أو حتى معظمهم أنهم قتلوا محتل، بس كل واحد فيهم كان عنده رد فعل مختلف. اللى بيصرخ، واللى بيبكي، واللى بيبتسم، واللى ثابت.

حقيقة واحدة وإيمان ويقين كل واحد مختلف عن الثاني، وده اللي خلى كل واحد ردود أفعاله مختلفة أمام الحقيقة الثابتة عند كل الناس اللي مينفعش فيه تمثيل أو أنك تدارى مشاعرك الحقيقية... الموت.

ثم تذكر فكرى نقشة رأس الطائر التي كانت على قبضة الباب، وبدأ بالبحث عنها فهي تشبه النقوش الفرعونية، فكتب على جوجل "رأس طائر فرعوني".

فوجد إحدى الصور تشبه نقشة قبضة الباب، مكتوب أسفلها "إله الحكمة وسيد السحر.. تحوت الوفى."

ثم ضغط حلمى على الصورة ليجد مجموعة صور أخرى. إحدى الصور لجسد بشري فرعوني برأس هذا الطائر، ويمسك في يديه عصى، أعلاها كرأس طائر وأسفلها كقدم طائر. هنا تذكر فكرى حلم الكاهن فقال فكرى محدثًا نفسه: "أنا مش فاهم أي حاجة، العصا دي كانت في حلمي أول أمبارح، كده حلم... حلم يفكرى... حلم... طيب طيب، نبدأ من تاني، وأحط افتراضات وأمشي وراها وحدة وحدة."

أول افتراض أن ده كان حلم، بس هو في حلم في التفاصيل دي كلها. وارد برضو، بس إيه الطريقة أني أتأكد أن ده كان حلم؟ أنا كنت تعبان من الشغل، ووارد أنى نمت على المكتب، وفعلاً فهمى صحانى.

الموضوع صعب قوي، وأنت في الحلم مش عارف أنه ده حلم غير لما بتصحى من النوم.

وأنا صحيت ولا لسه... العملية عندي بقت بايظة خالص.

ماشى، ماشى.

ثاني افتراض أن ده مكانش حلم، وأن في باب بيظهر في الحيطة اللى ورا مكتب الضوى.

وإن أنا شفت ناس كانت عايشة من مائة سنة تقريبًا (تهامي وأكرم والصفتى وغيره وغيره...) ونرجس... نرجس... الشيء الوحيد اللى أتمنى أن ما يكونش حلم.

ثم صمت فكرى قليلاً وتحدث قائلاً لنفسه: "المبنى..... أنا لازم أدور على تاريخ المبنى ده، وأسأل الأستاذ الضوى."

الأستاذ الضوى... ده الوحيد اللي ممكن يكون عنده معلومات عن الموضوع ده، هو كان تهامي أصلاً في الحلم... طب أروح أكلمه إزاي؟ ده ممكن يقول علي مجنون.

أخذ فكرى نفسًا عميقًا وهم واقفًا، وبدأ التحرك تجاه الضوى.

قال فكرى وهو يحاول الابتسام: "صباح الخير يا أستاذ الضوى."

ليرد الضوى: "لسه فاكر، عدت عليه مرتين وكمان أنا صبحت عليك أول مرة مردتش."

قال فكرى: "أنا آسف والله يا رجل، يا أبو قلب طيب، أنا بس مكنتش مركز."

قال الضوى وهو مستمر في مراجعة بعض المستندات: "اللي واخد عقلك؟"

قال فكرى: "لا مفيش حد واخد عقلي ولا حاجة، بقولك يا باشا هو هو هو..."

الضوى وهو لم يتوقف عن العمل: "إيه عمال تهو هو ليه؟"

قال فكري وهو متردد: "هو اسم حضرتك بالكامل إيه؟ تخيل شغال معاكم من سنتين ومعرفتش اسم حضرتك بالكامل."

الضوى تاركًا القلم وينظر من أسفل النظارة قائلًا: "رغم أني مستغرب من السؤال، بس ماشي، اسمي الضوى محمد تهامي."

قال فكري: "تهامي... تهامي."

قال الضوى: "إيه، مش عجبك الاسم؟ يلا يلا، قوم روح شوف شغلك وسبني أشوف شغلي، أنت إيه فاضي النهاردة؟"

تحرك فكري إلى مكتبه وهو يكرر: "تهامي.. تهامي.. تهامي." ثم جلس يفكر مرة أخرى وهو يداعب لحيته، واتخذ قرار أنه لم يذهب إلى بيته اليوم حتى يبحث في هذا الحائط العجيب على شيء يوضح الأمر.

فكري محدثًا والده في الهاتف الجوال: "ألو، السلام عليكم، صباح الفل يا حاج."

والده الأستاذ عبد الدايم يعيش معه فكري بعد أن توفيت والدته منذ سنتين، لا يملك عبد الدايم أولاد سوى فكري، وهو قد خرج على المعاش منذ سنة.

رد الأستاذ عبد الدايم على ابنه فكري قائلًا: "أيوه يا حبيبي، عامل إيه؟ خلصت شغلك؟"

قال فكري: "الحمد لله، خلصت معظم الشغل، بس لازم أبات النهاردة كمان عشان أخلصه كله."

قال والده: "فكري، أوعى يا ولد تكون بتضحك عليه ويكون في حاجة أو مشكلة، ولا تكون بتلعب بديلك."

قال فكري: "أنا شكل كده برضو يا حاج."

قال والده: "ماشي يا حبيبي، ربنا معاك، مع السلامة."

وبدأ فكري يبحث مرة أخرى على جوجل عن أي معلومة عن هذا المبنى الذي يجلب الأحلام العجيبة.

لم يجد البحث أي شيء، فلا توجد أي معلومات عن المبنى إلا أن صاحب العقار كان يونانيًا يدعى سارباكس وقد تم بناء المبنى سنة ١٨٧٩ على يد مهندس إيطالي.

قاطع فهمي حبل أفكار فكري قائلًا: "فكري، يلا، سكرتيرة مدير الشركة بتقول في اجتماع دلوقتي."

ليرد فكري: "ماشي ماشي، روح وأنا هاجي وراك."

قال فهمي: "مش هروح من غيرك، يلا."

بدأ فكري وفهمي بالتحرك إلى مكتب مدير الشركة، يتحدث فهمي مع فكري في ممر التوزيع، لكن فكري لا يرد. وكأنه يرفض أن يرجع إلى عالمه إلا أن يعرف جميع أسرار هذا الباب العجيب الذي ينقلك من زمن إلى زمن، ومن حياتك إلى حياة شخص آخر لا تعرفه ولا يعرفك.

قال فهمي منبهًا فكري: "فكري، سيبك من التوهة اللي أنت فيها دي من الصبح وركز هنا، إحنا داخلين على المدير."

قال فكري: "تمام، ماشي."

داخل مكتب المدير الذي جمع المهندسين بالشركة لكي يتحدث بالطبع عن ما طلبه منهم في أول اجتماع لهم، قال المدير: "صباح الخير يا جماعة، أنا اجتمعت معاكم النهاردة عشان أعرفكم بعض القرارات اللي خدتها."

"بعد ما طلبت منكم التقرير وكنت متخيل أن أنا النهاردة مش هخرج من المكتب خالص لمراجعة التقرير المقدمة منكم، الحقيقة مفيش غير ثلاث أربع تقارير اتقدمت، ومش كاملين ومش منظمين بشكل محترم، أقصد محترف طبعًا."

"عشان كده احنا محتاجين نضبط بعض الحاجات بصفة خاصة في قسم التصميمات والمقايسات."

"إن شاء الله من النهاردة المسؤول عن القسم هو المهندس رامي ومحتاجين تعاون جيد لكل الموجودين في القسم معه."

ثم أنهى الاجتماع كالعادة قبل أن ينطق أي مهندس بكلمة قائلاً: "شكرًا، اتفضلوا على شغلكم ما عدا المهندس رامي."

خارج الجميع من مكتب المدير، قال فهمي متحدثًا بصوت منخفض في ممر التوزيع: "يا خبر أبيض! رامي ده عمره ما يعرف يخلص شغلانة لوحده، دا إحنا اللي بنعمله الشغل بتاعه."

"يعني هو عايز يفهمنا إنه عامل تقرير أحسن منك، أنت؟" ثم صمت قليلاً ثم أردف: "ده بيخاف يتكلم أقدمك في الشغل."

فكري بصوت هادئ: "رامي هو أفضل اختيار له، وأنا كنت متوقع ده لما جه المدير الجديد وقابلنا أول مرة."

ثم أردف قائلاً: "أنت فاكر إنه مصلحته يجيب جنبه واحد شاطر وفاهم عشان ينقشه في اللي هو عايز يعمله ويفهم كل أسرار الشغل، أو حتى يظهر جنبه والناس تشوفه هو اللي شايل قسم التصميمات والمقايسات."

"مصلحته يجيب حد على قده عشان ما يظهرش في اجتماعات إنه فاهم وما يعرفش يرد على أي حاجة مع الإدارة العليا للشركة لو حد سأله، ويفضل هو بس اللي متشاف من الإدارة العليا، وهو الأفضل في المكان."

"وفي نفس الوقت رامي مش بيمتلك أي شيء يقدر يقدمه للشغل أو للمدير، فهيبدأ يقدم معلومات وأخبار عن اللي الشغالين معه عشان يحافظ على الكرسي اللي جاله هدية وممكن ما يجيش تاني لو راح."

قال فهمي: "كل اللي بتقوله ده، ومش زعلان من اللي حصل؟"

ليرد فكري: "أنا نازل أجيب حاجة من تحت، وجاي بسرعة، لو حد سأل عليه، قولوا هيجيب حاجة للصداع من الصيدلية وجاي."

قال فهمي: "طب أنا معايا برشام حلو للصداع."

فكري لم يرد عليه وذهب إلى المصعد لكي ينزل.

جاء المصعد، ووقف فكري مترددًا في فتح الباب قائلًا لنفسه: "والله أنا بقيت خايف افتح أي باب معدن لروح زمن تاني."

عاد فكري إلى الشركة بيده حقيبة بلاستيك سوداء.

قال فهمي: "أه يا فكري، كل ده دواء؟"

قال فكري: "خليك في حالك."

بدأ فكري يمارس مهام عمله كأن شيء لم يكن حتى جاءت الساعة الخامسة وبدأت الموظفين في الانصراف.

ذهب فكري للأستاذ الضوى محدثًا له: "مش عايز تقول لي حاجة؟"

الضوى نظر له بدهشة قائلًا: "هكون عايز أقول لك إيه يعني؟"

قال فكري: "طيب، أنت متأكد؟"

قال الضوى: "متأكد إن شاء الله."

ثم صمت الضوى برهة، ثم أردف قائلاً: "آه، أنا كنت عايز أقول لك حاجة مهمة فعلاً."

فكري منتبهًا قائلًا: "اتفضل."

قال الضوى: "خليك مركز في اللي بتعمله، وملكش دعوة بلي بيحصل في الشركة الأيام دي. سلام، مش عايز أقول لك، أشوفك بكرة، عشان معتقدش أنك هتيجي بكرة بعد يومين من الشغل التعب ده".

سلام... سلام.

نظر فكرى إلى الضوى باستغراب وقال: "الرجل ده قصده إيه؟"

ثم رجع فكرى إلى مكتبه وبدأ يقلب في بعض الأوراق متظاهراً بالعمل.

قال فهمى له: "إيه، مش هتمشى؟"

ليرد فكرى: "لا، عندى شوية شغل قاعد شوية."

قال فهمى: "محتاج أقعد معاك أساعدك."

ليرد فكرى: "لا، شكراً يا فهمى، أنا مش قاعد كتير."

قال فهمى: "طيب، سلام."

أصبحت الشركة خالية من الموظفين، وقربت الساعة على الحادية عشر.

وبدأت عيون فكرى في الغلق وحدها، فانتبه فكرى لذلك وأخذ الحقيبة البلاستيكية السوداء التي أحضرها من الخارج وذهب إلى مكتب الضوى.

وقف فكرى أمام الحائط يفكر ماذا سيفعل ليكشف أسرار هذا الحائط. أخرج بعض الأدوات البسيطة للتكسير من الحقيبة البلاستيكية السوداء، ونظر إلى الحائط متحسّساً إياه، ثم نظر إلى أسفل الحائط وبدأ في إزالة الوزرة، فلم يجد شيئاً أسفلها. بدأ في إزالة الأرضية بجوار الحائط بهدوء حتى لا تنكسر، وبدأ في إزالة الأسمنت والرمل أسفلها حتى وجد بلاطاً آخر، بدأ في إزالته، حتى وجد أسمنت ورمل مرة أخرى، فبدأ في إزالته. فظهرت حجرة الحائط دون أي بياض

عليها. بدأ فكرى ينظف الحجرة، فوجد شيئاً غريباً، رسومات غير مفهومة محفورة على أحد الأحجار.

أخرج فكرى الموبايل وقام بتصوير تلك الرسومات، ثم هم ليغلق ما فعله، فلاحظ وجود لفافة موضوعة بين الحجارة بجوار الحجر الذي عليه النقوش، فبدأ يخرجها بحذر حتى لا يتلفها. وكانت اللفافة مربوطة برباط من خيط عجيب، وكانت مصنوعة من نوع من أنواع الجلود الغريبة. فكرى أخرجها وفتحها متلهفاً، ونظر إليها مندهشاً...

بدأ فكرى يتفحص اللفافة يميناً ويساراً، مندهشاً لعدم وجود أي كلمة أو رسمة على هذا الجلد. كانت اللفافة لا يتجاوز عرضها عشرة سنتيمترات، ولكن طولها يتعدى خمسة وأربعين سنتيمتراً.

ثم سمع صوتاً من خلفه قائلاً: "إيه، وصلت لحاجة؟"

التفت فكرى فوجد الأستاذ الضوى.

بادره الضوى قائلاً: "إيه، هتقعد تبص ليه كده كتير؟ يلا قوم أعملك شاي غير اللي وقعته مبارح، وتعالى نتكلم شوية."

جلس الضوى مع فكرى وبدأ الضوى بالحديث: "ممكن تحكيلي بقى اللي حصل مبارح بالتفصيل الممل."

وبدأ فكرى بسرد ما حدث بالتفصيل، عسى أن يجد إجابة من الضوى تقتل حيراته التي نهشت كل جزء من عقله.

بعد الانتهاء من كلامه، قال فكرى محدثاً الضوى: "أنا حكيتلك كل حاجة حصلت، ناقص باقي إنك تحكيلي تفسيره. وأول حاجة تحكيها أنت، إزاي عرفت أنى هعمل ده النهاردة؟"

قال الضوى: "لا، أول حاجة دى أسهل حاجة في الموضوع ده، يمكن دى الحاجة الوحيدة اللي هقولك تفسرها كامل." ثم أضاف: "لما جئت النهاردة الصبح وتصدمت ولقيت الشاي وقع على ورق مهم، قلت أبص على المكاتب لو في حد موجود أسأله على اللي حصل. لقيتك نايم على المكتب ورايح في النوم، مرضتش أصحيك ورجعت مكتبي وفضلت أفكر: إيه اللي يخلى فكرى، وأنا عرفك كويس، يوقع كوباية الشاي وميفكرش يلحق الورق اللي موجود على المكتب أو

حتى يشيل الكوباية من على المكتب. لكن عدّيت الموضوع، ولما سألتك لما قمت من النوم ومرضتش عليه، استغربت أكثر.

ولما جيت لي بعد كده وفضلت تسألني أسئلة غريبة بدل المرة اتنين، بدأت أشك إن في حاجة. ولما قابلت فهمى عند الأسانسير وأنا مروح، وسألت عليك، قالى إنك قاعد شوية، شكيت أكثر.

قلت أجي بالليل الشركة، مش هخسر حاجة. لقيت اللي كان مستني جدي وأبويا، وأنا بعدهم، وبعد كده أنت عارف الباقي."

قال فكرى: "الباقي إيه؟ أنا مش عارف حاجة، إيه ده اللي كنتو مستنيينه؟"

قال الضوى: "أوعى تفتكر إنى عارف كل حاجة، أنا هقولك بس اللي عرفه." ثم أضاف: "الموضوع بدأ سنة ١٨٧٨ لما الشاب تهامي عبدالفتاح، خريج مدرسة اللسن، وابن أحد أعيان قرية إمبابة، واللي هو جدي، راح يصطاد سمك.

كان معاه أدوات صيد بسيطة: سنارة بدائية من عصاية غاب مربوط فيها خيط سنارة، وعصاية غاب ثانية، آخرها شبكة عشان يجيب بيها السمك اللي بيصطاده بالسنارة.

الأيام دي كان فيه فيضان، وسمك بيكّى لحد رجلك. لقى حاجة عايمة على وش النيل قريبة منه، ولما جابها بالشبكة، لقاها لفافة مربوطة بالخيط العجيب ده.

لما فتحها استغرب، مش بسبب إنها مفهش حاجة، لكن لأن وقتها كان فيها كلام معظمه باللغة الفرعونية.

أخذها وذهب بها، ولما جفت من المياه، الكلام كله اللي فيها اختفى. وعرف وقتها إن اللفافة العجيبة دى لما تحط عليها مياه يظهر الكلام، ولما تجف يختفي. فضلت الرسالة معاه، وفضل يدور على كتب بتتكلم عن لغة الفراعنة عشان يعرف اللي فيها."

قال فكرى: "طب معرفش الرسالة ولا اللفافة دي جت منين؟"

ليرد الضوى: "أنا جيلك في الكلام، ثم أضاف: في عام ١٨٦٣م أقر الخديوى إسماعيل مشروع إنشاء متحف للآثار المصرية، لكن لم يُنفذ المشروع، واكتفى بإعطاء مكان قدام دار الأنتيكخانة في بولاق ليبوسع متحفه. لكن في عام ١٨٧٨م حدث ارتفاع شديد في فيضان النيل، اللي سبب غرق متحف بولاق وضياع بعض محتوياته، وكانت اللفافة من ضمن المحتويات اللي ضاعت، وعشان هي بالنسبة لهم لفافة فاضية معليهاش أي كلام، ما كانوش مهتمين بها.

وده اللي عرفه جدي بعد كده، وكانت معظم اللي في المتحف من اكتشافات تم اكتشافها بجوار هرم دهشور.

بعدها بشهرين، كان جدي قد أتم ترجمة كل اللفافة بعد الاطلاع على بعض الكتب اللي بتتكلم عن اللغة الفرعونية، ما عدا بعض الرموز اللي معرفش يترجمها، وما كانتش موجودة في الكتب."

ثم أضاف الضوى مشيراً إلى زجاجة المياه على مكتب فكرى: "هات زجاجة المياه اللي جنبك دي."

وسكب الضوى الماء على اللفافة، وبدأت الرموز الفرعونية في الظهور. ثم أردف: "الله يرحمك يا جدي، أنت وأبوي، زي ما أنت شايف، الرموز بحجم صغير وكثيرة، وكأنها كتالوج لشيء معين. ممكن تصورها بالموبايل لو عايز."

قام فكرى وصورها، ثم قال: "وبعدين، الترجمة كانت بتقول إيه؟"

قال الضوى: "ثانية واحدة، أنا محتفظ بالترجمة في المحفظة."

أخرج الضوى الترجمة ثم بدأ في قراءتها: "عندما تلتصق لفافة الحكمة في أسفل الركن الأيسر من حجر ... وبعد كده في رموز غير مفهومة، وبعدها يكمل جدي في منتصف الليل ويكون الحجر ... نفس الرموز اللي مش مفهومة.

وبعد كده بتقول اللفافة: موازٍ للخط الواصل بين الشرق والغرب، ويضيء المعبد بالشعلات، ثم يختفي المعبد لحظات، ثم يظهر، ثم يختفي لحظات، ثم يظهر لحظات ولحظات، ثم يختفي، ثم يظهر باب الحكمة زمن اللحظات، سنين إلى الوراء ليعلمنا الحكمة ويختبرنا فيها حتى نعود إلى زمن الحكمة ويختار باب الحكمة مفتاحه."

قال فكرى بعد انتهاء الضوى: "إيه دا؟ أنا مفهمتش حاجة."

قال الضوى: "أنا مش عارف هل جدي ترجم كل اللي في اللفافة ولا لأ. بس بقيت الحكاية إن جدي توقع أن الرموز اللي مش مفهومة دي اسم الحجر المذكور في اللفافة.

وراح جدي عند هرم دهشور وقعد يدور عند المكان اللي اكتشف فيه المقبرة لحد ما لقى حجر مرسوم عليه نفس الرموز اللي مش مفهومة، ولأن الحجر ما كانش معروف مكتوب عليه إيه، سبوه زي كل الأحجار الفرعونية الكثيرة وقتها اللي ما كانوش يهتموا بها.

جدي أخذ الحجر معه وبدأ يفكر إزاي يحاول يطبق الكلام اللي في اللفافة عشان يكتشف اللي هيحصل بعدها.

حاول يعمله في حائط في حتة مقطوعة، بس ما جابتش نتيجة. حاول في كل الاتجاهات، برضو مفيش حاجة حصلت. وبعد كام شهر، كان الخواجة ساربكس بيبني المبنى ده، وكان محتاج حد يتواصل مع المهندس الإيطالي ويترجم للعمال، لأن الخواجة ما كانش فاضي وعنده شغل في تجارة بتخليه يسافر كتير، فجاب جدي عشان يقوم بالمهمة دي.

وفي يوم من الأيام، وهما في موقع الإنشاء، جدي سأل المهندس الإيطالي وقال له: "إزاي نرسم خط موازٍ للخط بين الشرق والغرب؟" رد عليه المهندس الإيطالي: "يكون موازٍ لوجهة المبنى ده"، وشاور على المبنى اللي فيه الشركة دلوقتي، وكان تم بناء الدور الثاني فيه.

وقتها جدي قرر يحط الحجر في الدور الثالث، يمكن يوصل لحاجة. بعد كده، أخذ المهندس الإيطالي مكانًا في الدور الثالث عشان يأسس مكتبًا هندسيًا، ودي طبعًا كانت فكرة جدي عشان يشتغل معه وعينه ديما تكون على الحجر.

المكتب كبر وبقى من أكبر المكاتب اللي شاركت في بناء مصر في عهد أولاد محمد علي، لحد ما بقى شركة مقاولات كبيرة تتباع من مالك لآخر.

وناس تيجي الشركة وناس تروح من موظفين ومهندسين ومحاسبين، والحجر مش بيختار حد زي ما موجود في اللفافة، لحد مبارح.

ثم صمت الأستاذ الضوى، وأخرج نفسًا عميقًا من فمه، وكأن قد أزاح عن صدره أمانة وعهد أخذه عليه والده، ثم أردف قائلاً: "أنا كده خلصت كل اللي عرفه، ومن بكرة أنا معرفش أي حاجة عن الموضوع ده. أنا كده أديت الرسالة اللي كان موصيها جدي لأبوي، وأبوي لي.

من هنا ورايح، مش عايز أسمع سيرة الموضوع ده، وياريت ترجع كل حاجة طلعتها في الأرضية اللي ورايا، عشان مخدش بالي من أي حاجة بكرة."

قال فكرى: "بس أنا عندي أسئلة كتير، منها أنا قابلت جدك ليه في الباب العجيب ده؟"

قال الضوى: "تقصد باب الحكمة، رغم أني لسه قايل من لحظة إنّي مش عايز أتكلم في الموضوع ده تاني، بس هقولك آخر كلمة فيه.

باب الحكمة اختارك أنت، وأنت الوحيد اللي مفروض تعرف أسباب كل حاجة، مش أنا، عشان أنا قلتلك كل اللي أعرفه. سلام."

تحرك الضوى تاركًا فكرى في حيرة أكثر من قبل أن يأتي إليه.

بدأ فكرى يرجع كل شيء إلى أصله في الأرضية، وبعد الانتهاء، رجع فكرى إلى مكتبه ووضع رأسه عليه ثم ذهب في النوم.

صباح اليوم التالي، فهمى يحاول إيقاظ فكرى: "فكرى! فكرى! فكرى! اصحى يا فكرى! إيه اللي نايمك كده بس على المكتب؟"

ثم أردف فهمى قائلاً: "ويُتَرى، خلصت اللي أنت عاوزه ولا سبتها ونمت على مكتبك؟"

قال فكرى: "إيه إيه! ابعد عني يا عم، عايز أنام تعبان، سبني أنام شوية."

قال فهمى: "أنام يا عم... قوم الساعة تسعة الصبح. قوم أبصم، ولا روح لو تعبان."

بدأ فكرى في الاستيقاظ، وقال: "إيه ده؟ أنا حاسس أن الموقف اتكرر قبل كده، أنت بتصحيني النهاردة ولا مبارح؟"

قال فهمى: "النهاردة ولا مبارح، مش فارقة. كل يوم باقي شبه اللي قبله."

فكرى بدأ في استذكار ما حدث أمس مع الأستاذ الضوى.

فكرى لنفسه: "أنا لازم أفتح الباب النهاردة، لازم أعرف ليه الباب اختارني، ولازم أروح البيت عشان أفكر بهدوء، وشوف أنا هعمل إيه، وكمان عشان أستحمى، أنا رحت بقيت زفت."

وهنا فكرى لجمع أغراضه للذهاب.

قال فهمى لفكرى: "يلا فكرى، عندنا اجتماع مع مديرنا الجديد."

قال فكرى: "مين حسام؟"

قال فهمى: "لا، رامى."

قال فكرى: "هي نقصه ده كمان؟ لا، بقولك أنا مفيش دماغ."

قال فهمى: "لا، مفيش دماغ إيه؟ وأمال مين اللي هيترجم؟"

قال فكرى: "هيترجم إيه يا عم؟ سبني أمشى."

قال فهمى: "تعالى، هو رامى بيعرف يقول حاجة، الاجتماع مش هيكمل ربع ساعة."

جذب فهمى فكرى إلى غرفة الاجتماعات، ووجد جميع موظفين القسم، بما فيهم الضوى، موجودين.

فكرى في نفسه: "رامى، وكأنه قد تغيَّرت ملامح وجهه وطريقة لبسه، وحتى نبرة صوته."

ابتسم فكرى لنفسه قائلاً: "هاها، صحيح، الكراسي بتتغير."

بدأ رامى الاجتماع قائلاً: "صباح الخير يا جماعة. طبعًا أنا مش غريب عليكم، أنا معاكم في الشركة من سنة تقريبًا، وعملنا مع بعض شغل كويس، وإن شاء الله الفترة الجاية هنعمل كمان. كنت عايز أؤكد على أن الفترة الجاية هيكون في نظام جديد في الشغل. الشغل هيكون جماعي أكثر من كونه فردي، أي مقاييسات أو تصميمات هتتعمل حتى لو لمشروع واحد هنشارك فيه كلنا، يعني اللي يراجع منطوق البند مش هو اللي هيقوم بتحليل السعر له. واللي بيحلل السعر مش هو اللي هيعمل كراسة الشروط والمواصفات بعد كده." ثم أردف: "تمام، في حد عنده أي تعليق؟"

قال فكرى: "بعد إذنك يا هندسة."

ليرد رامى: "اتفضل يا بشمهندس فكرى."

قال فكرى: "بس أنت مش شايف أن ده ممكن يعمل خلل بين المواصفات وتقدير السعر؟"

رد رامى: "لا، عادي، مش هيعمل خلل ولا حاجة. الخلل هيجى منين؟"

قال فكرى: "أه، صح، عندك حق."

قال رامى: "توزعت الشغل الجديد هيكون مع الأستاذ الضوى، ولازم تراجعوا مع بعض أي حاجة قبل ما تخلص، وأنا إن شاء الله هرجعها في الآخر." ثم أردف: "شكرًا يا جماعة."

قال فكرى: "بعد إذنك يا مهندس رامى، أنا كنت همشى عشان تعبان شوية."

قال رامى: "بس يا هندسة في شغل مهم النهاردة."

قال فكرى: "مفيش مشاكل، هاروح دلوقتي وأجي أسهر بالليل أخلصه."

قال رامى: "تمام، شكرًا يا فكرى."

بعد الخروج من الاجتماع، قال فهمى محدثًا فكرى: "هو إيه (أه، صح، عنده حق)؟ ثم أردف: "إزاي مش هيعمل خلل بين المواصفات وتقدير السعر، وإزاي السعر هيكون قبل المواصفات والشروط؟"

قال فكرى: "فكك منى يا فهمى، أنا عايز ألحق أروح عشان هاجى آخر النهار."

قال فهمى: "لا، أنا مش هسيبك غير لما تفهمني."

قال فكرى: "أولًا، رامى بينقل التعليمات اللي اتقالت له بالحرف، وغالبًا مش عارف سببها."

قال فهمى: "برضو مش فاهم حاجة."

قال فكرى: "طيب، هحكيلك حكاية، بس مش هسمع منك ولا كلمة بعدها، ماشى؟"

قال فهمى: "ماشى."

قال فكرى: "لو أنا قررت في يوم من الأيام أجمع عربية، وأنا معنديش أي فكرة عن تجميع العربيات. ورحت للراجل بتاع الفرش، وقولت له: عايز فرش عربية حلو كده. فسألني الراجل: مقاسها كام؟ قلت له: زي ما تحب، بس يكون حلو. قال لي: ماشى. ورحت لسمكرى، وقولت له: أنا عايز شاسيه عربية شكله انسيابي. قال لي السمكرى: طب عرضه كام، طوله كام؟ قلت له: زي ما تحب. ورحت الميكانيكا، وقولت له: عايز مكنة عربية عافية. راح قال لي: عايزها كام حصان؟ قلت له: أحسن حاجة. جيبت أنا كل حاجة وركبتها مع بعض. يبقى مين اللي عمل العربية؟"

قال فهمى: "إيه يا عم، ده أنا مش فاهم حاجة، وإيه علاقة ده بما حصل في الاجتماع؟"

تحرك فكرى من أمام فهمى دون أن ينطق كلمة أخرى.

فهمى بعد مغادرة فكرى قال: "بس أنا متأكد إن العربية دى مش هتتحرك من مكانها، ولو اتحركت، كل شوية هتعطل."

خرج فكرى متجهًا إلى بيته الموجود بالعباسية، ووصل البيت في دقائق. ثم فتح باب الشقة ووجد والده في انتظاره فقال: "صباح الفل يا حاج."

والده مرحبًا به بابتسامة وهو يشاهد التلفاز: "إزيك يا فكرى، والله لك وحشة."

فكرى مقبلًا يد والده ثم قال: "بعد إذنك يا حاج، هخد دش وأخش أنام في غرفتي شوية لحسن بقالى يومين مانمتش كويس."

قال والده: "ماشى، يا حبيبي، نوم العافية."

بعد خروج فكرى من الحمام، دخل غرفته وجلس على مكتبه وبدأ يكتب كل شيء حدث له، ثم قال لنفسه: "الساعة كانت تقريبًا أتناشر منتصف الليل لما رحت أعمل الشاى أول أمبارح. ودي سهلة، يعني ممكن يكون الباب مش بيفتح غير الوقت ده، وده مكتوب في اللفافة."

"بس إيه حكاية المعبد اللي بيظهر ويختفي ده؟ لو الفراعنة كانوا بيستخدموا الباب ده، يبقى أكيد كانوا حطينه في معبد زي ما مكتوب في اللفافة. بس إيه علاقة المعبد بالشركة؟ أكيد مفيش علاقة إلا وجود الحجر في حائط الشركة."

"معنى كده، لازم الشركة تظهر وتختفى، إزاي وده محصلش لما الباب ظهر معايا؟ بس ممكن يكون تختفى، يعني مش شايفه، يعني ممكن يكون الليل جه ومش شايف حاجة. صح، الليل... الليل والنهار، إيه ده؟ يعني الإضاءة اللي في المعبد، يعني الشعلات اللي في المعبد هي اللي كانت بتنطفى وتنور تاني. يعني ممكن تكون لما بتنطفى في منتصف الليل، المعبد يختفي، أو أصلًا ترجمة تهامى كانت غلط، بدل (تختفى) تكون (تنطفى). الشعلات يعنى الكهربا دلوقتي. لما كانت بتقطع وتيجي نتيجة عطل لوحة الكهربا بتاعة الدور. استنى كده بقى... افتكرت النور قطع ثوانى ورجع، وبعد كده قطع ثوانى ورجع، وبعد كده قطع دقيقة ولا أكتر شوية ورجع."

بدأ فكرى يراجع الكلام باللفافة مرة أخرى:

"ويضيء المعبد بالشعلات، ثم يختفى المعبد لحظات، ثم يظهر، ثم يختفى لحظات، ثم يظهر لحظات ولحظات، ثم يختفى، ثم يظهر باب الحكمة بزمن اللحظات سنين إلى الوراء ليعلمنا الحكمة ويختبرنا فيها حتى نعود إلى زمن الحكمة، ويختار باب الحكمة مفتاحه."

ثم أردف فكرى قائلاً: "بزمن اللحظات سنين إلى الوراء، أنا كنت في سنة ١٩٢٤، يعني رجعت تقريبًا ١٠٠ سنة. يبقى أكيد عدد الثوانى اللي قطع فيه النور كانت ١٠٠ ثانية.

صح كده. طب إيه حكاية "ليعلمنا الحكمة ويختبرنا فيها" دي؟ وهيختبرنا فيها إزاي؟ لا لا لا، إيه الموضوع المهبب اللي أنا دخلت فيه ده؟ طب ليه جد الضوى الأستاذ تهامي؟

أه صحيح، لو مكنتش شوفت تهامي، مكنتش سألت الضوى ولا عرفت حد أسمع منه الحكاية. بدأ فكرى يجهز نفسه ليعود إلى الشركة مرة أخرى.

قال والده عبدالدايم: "انت رايح فين تاني؟" قال فكرى: "معلش يا بابا، عندي شغل لازم أخلصه في الشركة. وبعدين أنا أخدت شاور ونمت شوية، سلام يا حبيبي." قال والده: "سلام، خلي بالك من نفسك."

دخل فكرى إلى القسم ليقابله فهمى قائلاً: "انت رجعت تاني، تعالى فهمني بقى حكاية العربية دي." قال فكرى: "فكك منى يا فهمى، أنا عندي شغل عايز أخلصه." ذهب فكرى إلى الأستاذ الضوى عشان يعرف إيه المطلوب منه ويعمله.

قال فكرى: "إزّيك يا أستاذ الضوى." ليرد الضوى: "إزّيك يا فكرى، عامل إيه؟" قال فكرى: "النهاردة إن شاء الله كل شيء هيخلص وهعرف كل حاجة." قال الضوى: "كل حاجة عن إيه؟" قال فكرى: "عن الشغل، كل حاجة هتخلص في الشغل ده اللي اتدهولي." قال الضوى: "ماشي، تمام، ربنا معاك."

بدأ فكرى العمل حتى جاءت الساعة الخامسة وبدأ الموظفون في الخروج من الشركة. قال فهمى وهو يخرج من القسم: "سلام يا فكرى." ليرد فكرى: "سلام."

ظل يعمل فكرى حتى قربت الساعة على الثانية عشر منتصف الليل وقد انتهى من جميع المهام المطلوبة منه وأصبحت الشركة خالية من الموظفين.

ذهب فكرى إلى لوحة الكهرباء الخاصة بالدور ووقف أمامها يحدث نفسه: "يا ترى اللي هعمله ده هيجيب نتيجة ولا لأ؟"

فتح لوحة الكهرباء وانتظر الساعة حتى تصل إلى الساعة الثانية عشر. ثم أنزل مفتاح الإنارة ونظر إلى ساعته حتى مرت خمس ثوانٍ، ثم أضاء النور مرة أخرى، ثم أغلقه سريعًا. ثم خمس ثوانٍ، ثم أضاءه، ثم أغلقه مرة أخرى، وانتظر حتى يمضي ٩٠ ثانية ثم أضاءه.

بدأ يتحرك مهرولا إلى القسم، يمني نفسه أن يجد هذا الباب العجيب الذي يتنقل به عبر الزمان إلى الماضي لحكمة لا يعلمها فكرى حتى الآن. دخل القسم ووجد ما كان يمني نفسه به: باب الحكمة، الباب الذي له إطار من المسامير النحاسية الضخمة. اقترب من الباب ووضع يده على مقبضه وأداره يمينًا، ولكنه لم يفتح. ثم أداره يسارًا، لم يفتح أيضًا.

حول مرارًا وتكرارًا، يجذبه إليه تارة ويدفعه تارة أخرى، ولكنه لم يفتح. ثم ظهرت عبارة على الباب: (أنطق بالحكمة). فكرى متحدثًا لنفسه: "حكمة إيه... الحكمة؟"

بدأ يراجع فكرى كل ما حدث في الرحلة الأولى التي كاد أن يموت فيها، محدثًا نفسه قائلاً: "هو ده الاختبار، الحكمة في دخولي المرة الأولى... الحكمة من الحكاية اللي عشتها من مائة سنة... الحكمة اللي أنا فكرت فيها فعلاً واللي دايمًا بقولها لنفسي."

ثم نطق: "إن لم تدير أنت أمور أحلامك، سيكون هناك آخرون يديرونها."

أدار فكرى المقبض تجاه اليمين، فأدار المسامير تجاه اليسار وفتح الباب. فتح فكرى جزءًا من الباب بتوجس وحرص، وأدخل إحدى قدميه إلى الباب فوجد رجلًا يرتدي زيًا عسكريًا قديمًا يحمل بندقية على كتفه في إحدى جانبيه والجانب الآخر عصا، ويرتدي على رأسه طربوش.

قال فكرى لنفسه: "ده تقريبًا من عساكر المملكة المصرية."

رجع فكرى مرة أخرى بسرعة وأغلق الباب، وإذا به في حمام به شباك مغلق بقضبان حديدية. قال فكرى لنفسه: "هو أنا فين وإيه اللبس الغريب ده... بجامة كستور مخططة؟"

وجد حلمى أنه لا مفر من الخروج وفتح الباب مرة أخرى. قال العسكرى: "أخيرًا، خلصت. أنا افتكرتك موت جوه، يلا اتفضل على العنبر."

خرج حلمى إلى ممر عرضه لا يزيد عن مترين به أبواب يمينًا ويسارًا، وبدأ حلمى في السعال دون أن يعرف السبب في ذلك. حلمى محدثًا لنفسه: "عنبر... الله يخرب بيت الباب المهبب ده، هو فتح على السجن ولا إيه؟"

قال العسكرى وهو يوجه حلمى بيده: "إيه، أنت رايح فين؟ باب العنبر هو، خش قدامي."

دخل حلمى في مكان يوجد به الكثير من الأسرّة. قال العسكرى: "رايح فين سريرك أهو."

جلس حلمى على السرير يفكر: "إيه المكان اللي أنا دخلت فيه ده، وليه العسكرى ده معايا، وليه أنا عمال أكح؟... ليقطع تفكير حلمى وحيرته دخول أحد الممرضين بالمستشفى."

قال الممرض: "إزّيك، عامل إيه؟ الحمد لله إنك قومت بسلامة، تعبتنا معاك." قال حلمى: "الله يسلمك، هو إيه اللي حصل؟"

قال الممرض: "إيه اللي حصل ولا حاجة، حد تقريبًا قفل عليك مستوقد فول وهو مولع وجبوك بين الحياة والموت، وبعدين البوليس جاب شيخ الحارة بتاع السيدة زينب عشان يتعرف عليك."

"اعدل نفسك على السرير عشان تاخد الحقنة دي، ثم أردف: شيخ الحارة متعرفش عليك جاب المساعد بتاعه، قال إنك كنت في خناقة وضربت واحد بالنار... قولي بقى أنت اسمك إيه."

أيقن فكرى أنه عاد مرة أخرى إلى نفس الزمن وأنه قد تم إنقاذه من حريق المستوقد. قال حلمى: "هو أنا بقالى قد إيه هنا؟" قال الممرض: "بقالك يجي أسبوع." قال حلمى: "أسبوع؟"

قال الممرض: "امسك بقى الورقة دي، بعتهالك أستاذ اسمه تهامي، وأنا مقولتش لك حاجة."

خرج الممرض من العنبر، ثم دخل شخصان يبدو على أحدهما أنه طبيب والآخر يرتدي زيًا يشبه العسكري قليلاً. أخفى حلمي الورقة سريعًا.

قال الطبيب: "إزيك النهاردة، عامل إيه؟"

حلمي مستمرًا في السعال: "الحمد لله."

قال الطبيب: "حضرت الضابط عايز يسألك حبة أسئلة، هتقدر؟"

ليقاطع الضابط الطبيب: "أه طبعًا، هيقدر، ما هو كويس أهو."

ثم بدأ بتوجيه الحديث إلى حلمي قائلاً: "قولي اسمك إيه."

قال حلمي: "اسمي... مش عارف، يا فندم، أنا مش فاكر حاجة خالص."

قال الضابط: "إيه يا دكتور، هو كان جاي مخبوط على رأسه ولا إيه؟"

قال الطبيب: "حالة الاختناق كانت قوية جدًا، ممكن الأكسجين القليل أثر على كفاءة المخ. على العموم، مش عايزين نستعجل، ممكن تكون حالة مؤقتة."

قال الضابط: "انطق يلا، اسمك إيه، ومين اللي كنت بتتخانق معاهم، وفين السلاح اللي كان معاك؟"

قال حلمي: "سلاح... سلاح إيه؟"

أمسك الضابط حلمي من ملابسه وهو مستمر في السعال، وقال: "انت هتستعبط؟ انطق يلا."

قال الطبيب وهو يحاول تهدئة الضابط: "يا فندم، ما ينفعش كده. هو يومين بالكتير وهيكون بره الأستبالية. ممكن وقتها تعمل اللي عايزه... بعد إذن حضرتك."

قال الضابط: "ماشي، سهلة، انت هتروح مني فين؟"

خرج الضابط من العنبر منبهًا العسكري بعدم ترك مكانه حتى يأتي عسكري آخر، وتحرك الضابط وأغلق باب العنبر.

العنبر كان خاليًا تمامًا من المرضى، ولا يوجد به أحد إلا حلمي. أخرج حلمي الورقة وبدأ في القراءة:

"حمد الله على السلامة يا حلمي، متخافش هتخرج النهاردة قبل ما تروح على السجن. تحت السرير هتلاقي ملابس عسكري، البسها وغطِّ نفسك، وانتظر الممرض لما يقولك يلا."

نظر حلمي أسفل السرير ووجد الملابس، وبدأ في تنفيذ التعليمات. حتى فتح الممرض الباب، وقال لحلمي: "يلا بسرعة قبل ما العسكري يرجع من دورة المياه."

قفز حلمي من على السرير يجاهد أعياءه.

قال الممرض: "امشي في وشك على طول، هتلاقي الباب في وشك."

خرج حلمي من الباب ومشى مسرعًا في الممر حتى خرج منه إلى حديقة، ثم باب الخروج من الأستبالية. ووجد تهامي في أتومبيل، فركب معه، وأسرعوا في الهروب تحت ستار الليل.

قال تهامي مرحبًا بحلمي: "حمد الله على السلامة يا حلمي، غير بسرعة إلى انت لابسه ده، عندك بدلة على مقاسك."

بدأ حلمي يغير ويتحدث مع تهامي: "مش اللورد ألنبى المقصود دول عايزين يقتلوا السردار لي ستاك، أنا سمعتهم بنفسي. الراجل اللي شفيق راح يقابله بيقول: دي تعليمات الباشا الجديدة، انت مش مهتم ليه كده، يا أستاذ تهامي؟"

قال تهامي: "المعلومة متأخرة يا حلمي، الناس فعلاً نفذت العملية من ثلاث أيام، والدنيا مقلوبة. واللي حصل حصل وخلاص، واللورد ألنبى قلب الدنيا على سعد باشا، والمتوقع في الآخر حكومة سعد باشا هتقدم استقالتها."

قال حلمي: "أنا آسف، يا أستاذ تهامي، كان المفروض أكون حريص أكتر من كده."

قال تهامي: "مش مهم دلوقتي، المهم القادم. الانجليز عايزين يخرجوا الجيش المصري من السودان، وأخدوا الموضوع ده حجة. وهيخدو مننا خمسمائة ألف جنيه مصري تعويض، ولازم الحكومة المصرية خلال أيام تقبض على اللي عمل العملة السودة دي وتسلمه للإنجليز، لأما الحكومة تستقيل."

قال حلمي: "طب ما نساعد الحكومة ونقول للبوليس عليهم."

قال تهامي: "ده مش دورنا ولا ده هدفنا، احنا كنا عايزين نمنعهم. أما دلوقتي نفسنا مفيش حد يمسكهم، حتى لو هما غلط."

قال حلمي بصوت منخفض: "الله يرحمهم، كده كده هتمسكوا."

قال تهامي: "بتقول حاجة يا حلمي؟"

قال حلمي: "لا، مفيش حاجة."

قال تهامي: "انت كويس دلوقتي؟ الكحة عاملة إيه معاك؟"

ثم أعطى تهامي حلمي بعض الأدوية قائلاً: "خد الأدوية دي وداوم عليها الثلاثة الأيام الجاية، هتبقى كويس إن شاء الله."

قال تهامي: "يلا، يا حلمي، احنا وصلنا."

قال حلمي: "الحلاق؟"

قال تهامي: "في اجتماع النهاردة مهم، انزل."

قال حلمي ساخرًا: "انت هتحلق تاني؟"

ليرد تهامي: "أه، يلا."

وصل حلمي وتهامي لمقر الاجتماع، ووجد أكرم والصفتى ونرجس في انتظارهم.

حلمي متحدثًا لنفسه حين رأى وجه نرجس: "أحلى حاجة في موضوع الباب ده نرجس."

قال حلمي: "السلام عليكم، إزيكم؟"

قال أكرم والصفتى: "حمد الله على السلامة يا حلمي."

قال حلمي: "الله يسلمكم."

قالت نرجس بصوتها الهادئ العذب: "حمد الله على سلامة حضرتك."

قال حلمي: "شكرًا يا فندم."

حلمي لنفسه وهو معلق نظره بنرجس: "ياسلام، فين بنات القرن الواحد والعشرين يشوفوا جمال البنت الشرقية بجد؟"

قال تهامي بعد جلوس الجميع: "إزيكم يا ولاد، يارب تكونوا كلكم بخير. طبعًا انتوا كلكم عارفين إن العملية اللي المفروض كنا نمنعها حصلت خلاص، وبكده يكون دورنا انتهى. لكن في موضوع تاني أهم بكتير ولازم نتحرك فيه بسرعة."

ثم أردف تهامي: "الحكاية اللي انتوا عارفينها كويس بدأت في نوفمبر ١٩١٧ لما وزير خارجية بريطانيا بلفور وعد كبير عائلة روتشيلد إنهم ياخدوا حتة من وطني العربي... فلسطين. وللأسف كل الإجراءات اللي اتخذت من الحاكم العرب مش قد كده، على العكس تمامًا، الحركة الصهيونية شغالة في كل المحاور اللي هتفيدها في الموضوع، وفي كل الأماكن اللي ليها علاقة بالوطن المزعوم بتاعهم."

"وفعلاً بدأوا في مصر من فترة، ومفيش حد شايفهم ولا واخد باله منهم، عشان هما شغالين بخطوات بسيطة ومش متشافة، لكن بتحقق أهداف كبيرة بعد فترة."

وأول شيء بدأوا به هو إصدار جرائد بالفرنسية والعربية تخاطب يهود مصر لزيادة وعيهم بالوطن المزعوم، مثل جريدة "ريفو إسرائيل" وجريدة "كابيه جويف" وجريدة "الفجر اليهودية". كما قال الأب الروحي للمنظمة الصهيونية ومؤسسها هرتزل: "امتلك صحافة حرة تقيم علاقة وتمتلك سيفًا قويًا، وبدونها تمتلك سيفًا خشبيًا كطفل صغير."

قال حلمي: "حتى لو رأيناهم، أحنا مش فاضين لهم. عندنا معارك أخرى مع الاحتلال، وقضيتنا الأولى هي الاستقلال."

قال تهامي: "صح يا حلمي، وهم يستغلون ذلك بمتياز. المنظمة الصهيونية وصلت في فترة قصيرة إلى أن يكون لها مقربون من الحاشية الملكية، ومنهم من أصبحوا من الحاشية نفسها، وطبعًا معظمهم يساعد الملك فؤاد في تجارته."

"وحتى معظم الأحزاب أصبح لهم رجال فيهم، مثل الخواجة ليون كاسترو، صديق سعد زغلول وأحد قيادات حزب الوفد، أو دانيال كوريال، الصديق المقرب لإسماعيل صدقي. والغريب أن الصهاينة استطاعوا إقناع الوسط السياسي بأنه لا يوجد فرق بين حبهم لمصر وحبهم للصهيونية."

"للأسف، حرصهم على عدم القيام بأي شيء يضر مصر، بل بالعكس، يساعدون في الكفاح الوطني بشتّى الطرق، لحد ماتأكدوا من كلمهم ده."

ثم أردف تهامي: "وإحنا هنا نتحدث عن الصهاينة وليس اليهود، لأن ليس كل اليهود صهاينة. مثلًا، في اليهود أناس أفاضل مثل حايم نحوم أفندي، الحاخام الأكبر لليهود، فهذا رجل يحب مصر لدرجة أن الملك فؤاد عينه عضوًا في مجمع اللغة العربية."

ثم أضاف تهامي: "وبسبب كل الحيرة التي أنا فيها، قررت من اليوم أن تكون هذه قضيتنا، ولا بد أن نكسبها."

ثم أضاف تهامي: "لازم نعرف ما تفكر فيه هذه المنظمة وما تخطط له في الخفاء، والثلاثة أسماء دول احفظوها جيدًا، فهم أول الخيط:

١. الخواجة بادوفا، ويمتلك محلات ذهب.

٢. الخواجة بوريلي، لديه مقهى ويتاجر في المشروبات الروحية وغيرها.

٣. الخواجة لوسيان شيتو، وهو أهم واحد فيهم، لديه مطبعة ومكتبة ودار نشر وغيرها.

هؤلاء الثلاثة في الفترة الماضية كانوا يتقابلون مع الخواجة كاسترو في سر، كنا نراقب كاسترو لأنه هو الذي أسس المنظمة الصهيونية في مصر.

الغريب أنهم كانوا يتقابلون في السر، ليه مش عارف . وبعد فترة، بطلوا يشوفوا بعض، وكاسترو أصبح يمارس حياته الطبيعية جدًا بعيدًا عنهم.

استطعنا الحصول على صورة لهم، وده كان صعبًا جدًا. بصوا فيهم كويس، عشان تحفظوا أشكالهم.

المعركة بيننا وبين هؤلاء الأشخاص في البداية يجب أن نركز فيها على جمع المعلومات وربط الخيوط ببعضها.

لذلك، في الفترة القادمة يجب أن تكون هناك خطة لمراقبة الثلاثة، وهذه الخطة ستكون مسؤوليتك يا حلمي، أنت أفضل شخص للموضوع ده.

قال حلمي وقد بدأ بالتفكير قبل أن ينتهي تهامي من حديثه:

"لازم نعمل خطة رصد لكل تحركات الثلاثة دول، وعلى أساس الرصد هنحط الخطة عشان نحمي بلدنا منهم. لذلك هنبدأ بالرصد من بكرة.

أكرم هيكون مسؤول عن رصد تحركات بادوفا، والصفتى مسؤول عن رصد تحركات بوريلي، وأنا بقى هبقى مسؤول عن رصد تحركات لوسيان شيتو."

قالت نرجس: "بعد إذنك يا باشمهندس حلمي، هو أنا مش هيكون لي دور مع حضرتكم؟"

رد حلمي: "لا طبعًا، هيكون ليكي دور مهم جدًا. هتغطي أي حد مش هيقدر يكمل الرصد، لأن الرصد هيكون لمدة تلت أيام. أي حد هيقع مننا في يوم أو هيكون عنده أي ظرف، حضرتك أو الأستاذ تهامي هتكونوا بداله."

تابع حلمي: "الرصد هيكون متعب جدًا، لأنك لازم تسجل كل حاجة بيعملها المرصود، لدرجة إنك لو قدرت تسجل كلامه هتسجله. وكل حاجة لازم تكون بالتاريخ والوقت، لأن زي ما قال الأستاذ تهامي، الناس دي خطواتهم بسيطة وبتوصل لأهداف كبيرة.

الخطوة دي مهمة جدًا، وهي اللي هتعرفنا إحنا هنعمل إيه بعد كده."

قال تهامي: "بادوفا ساكن في حارة اليهود، وبوريلي ساكن في الضرب الأحمر، أما لوسيان شيتو، فهو ساكن في السكاكيني."

رد حلمي: "وعشان يكون الرصد بشكل غير لافت للنظر، لازم كل يوم الراصد يكون بلبس وهيئة مختلفة عن اليوم اللي قبله.

واحتمال كبير وإحنا بنرصد تحركاتهم نقابل بعض، وعشان كده لازم نكون عارفين لبس بعض كل يوم. ولو حصل ده مع أكرم والصفتى، أكرم يبعد والصفتى يقرب، ولو أنا موجود أنا هقرب والتاني يبعد. ولازم يكون مع كل هيئة مختلفة وسيلة للتنقل، يعني عجلة، أوتومبيل، أو حنطور.

كل يوم بعد نهاية الرصد هنتقابل هنا، لازم كل يوم ده يحصل عشان نرتب لليوم اللي بعده."

ثم أردف حلمي: "بكره أكرم هيكون معاه عجلة ولابس لبس صنايعي في ورشة، والصفتى طالب ومعاه برضه عجلة. وأنا هلبس بدلة بشكلي العادي، وهيكون معايا الأوتومبيل بتاع الأستاذ تهامي."

ثم تابع: "في حد عنده أي أسئلة؟"

قال الصفتى: "آه، أنا عايز أعرف تاني يوم هلبس إيه عشان ألحق أحضره."

قال حلمي: "اللي هيكون مسؤول عن اللبس كل يوم وتحضيره الأستاذ تهامي. إنت هتيجي كل يوم بعد الرصد تاخد اللبس ووسيلة التنقل بتاعتك، وتقول اللي حصل في الرصد. وكل واحد في نهاية الرصد هيكتب تقرير عن اللي رصده."

قال أكرم: "إيه هيكون تصرفنا لو حسينا إن المرصود حس بينا؟"

رد حلمي: "هيُنهي الرصد فورًا وييجي على المقر، بس لازم يتأكد إن مفيش حد بيرصده وهو جاي المقر. وتاني يوم هنبدل مع بعض."

قالت نرجس: "أنا هعرف منين إن إنتو هتكونوا محتاجين إني أكون بدل حد؟ هل هاجي كل يوم المقر؟"

قال حلمي، وظهرت على وجهه الحيرة: "المقر... المقر..."

صمت حلمي ثواني ثم أردف: "لا، مش لازم تيجي. الأستاذ تهامي هيبلغك لما نكون محتاجينك."

قال تهامي: "معنى كده إني هكون في اجتماع كل يوم بعد الرصد؟"

قال حلمي: "ده أكيد طبعًا، بس في حاجة مهمة جدًا لازم نعملها من بكرة، ولازم يا أستاذ تهامي تسعدنا فيها."

قال تهامي: "إيه هي؟"

قال حلمي: "عايزين مقر تاني من بكرة."

قال تهامي: "ليه؟ ما ده كويس جدًا، وأنا تعبت عقبال ما لقيته."

قال حلمي: "وعشان كده لازم نشوف مقر تاني أثناء عمليات الرصد."

قال تهامي: "ليه؟ مش فاهم."

قال حلمي: "إحنا مش لازم نخسر المقر ده، إحنا مش هنراقب ناس عادية، إحنا هنراقب ناس شغالة في منظمة صهيونية، يعني ممكن تكون مدربة لدرجة أنها لما تكشف الرصد بتاعنا، تراقب اللي بيرقبها وتعرف بيروح فين بعد كده، وده هيكون خطر على المقر ده وعلينا."

قال تهامي: "برافو يا حلمي، ده فعلاً ممكن يحصل."

قال حلمي: "عشان كده لازم يكون فيه مقر مؤقت أثناء عملية الرصد، ويتغير لو حسينا بأي حاجة مش طبيعية."

قال تهامي: "بكرة هأجر شقة في الأزبكية."

قال حلمي، وقد أثر التعب على وجهه: "في حد عنده أي أسئلة تانية؟ ثم أضاف: عناوين الأماكن اللي هنبدأ برصد فيها بكرة موجودة معاك يا أستاذ تهامي."

قال تهامي: "طبعًا."

قال حلمي: "ياريت توزعها بعد إذنك على الناس عشان تحفظها."

ثم سأل حلمي عن الحمام وذهب إليه.

قال تهامي: "وكمان لازم نتفق على المكان اللي هنتقابل فيه بكرة عشان نتحرك بعد كده على المقر المؤقت."

تحرك حلمي إلى الحمام، وكان هناك ممر بجانب صالة الاجتماع، وفي نهاية هذا الممر يوجد الحمام.

حلمي متحدثًا لنفسه: "باب حمام حديد، حاجة غريبة قوي! إيه ده، أنا لما جيت المرة دي، جيت في حمام، يترى اللي ورا الباب ده حمام؟ ولو الزمن بتاعي، طب إيه؟ أنا مش عايز أرجع دلوقتي، أنا عايز أعرف أخرت الموضوع الجديد ده إيه، يمكن أعرف ليه الباب ده اختارني. يعم، انت هتوجع دماغك ليه؟ خش الحمام وخلاص."

وهم حلمي بفتح الباب ودخل الحمام.

حلمي لنفسه: "حمام عادي بس غريبة عاملين الباب بتاعه حديد ليه؟"

حلمي خرج من الحمام متحدثًا للأستاذ تهامي: "إنت عامل باب الحمام حديد ليه؟"

ليرد تهامي: "الحمام ده مش حمام بس، ده كمان منفذ هروب لا قدر الله، لو حد عرف المقر بتاعنا وتم اقتحامه، تدخل الحمام وتقفل وراك الباب الحديد، هيديك وقت كفاية عشان تفتح شباك الحمام، هتلقى سلم بحاري تطلع به فوق سطح البيت اللي مش بعيد بالمناسبة، ومنه تتحرك على البيت اللي جنبنا وتخرج منها."

قال حلمي: "دي خطة ممتازة للهروب، فعلاً في أي ظروف طارئة."

قال تهامي: "طب يلا يا فالح عشان أوصلك في طريقي."

قال حلمي: "لا، أنا هتمشى لحد البيت، عايز أمشي شوية."

قال تهامي: "طب براحتك، يلا يا نرجس عشان أوصلك في طريقي."

قال حلمي: "ولا أقولك، أنا لسه تعبان، أجي معاك أحسن."

قال تهامي: "آخر كلام..."

ركب الجميع الأتومبيل: تهامي، حلمي، ونرجس، ومضى الآخرون إلى منازلهم.

قالت نرجس: "ممكن يا أستاذ تهامي تنزلني جنب المتحف، في واحد بتاع خردوات هنا، عايز أجيب منه حاجة."

قال تهامي: "وهيكون فاتح دلوقتي يا نرجس، إحنا بعد العشاء بعشاء."

قالت نرجس: "أيوه، هو بيتأخر شوية."

أوقف تهامي السيارة وهمت نرجس في النزول.

قال حلمي: "أنا حاسس إني بقيت كويس، هنزل أمشي الحبة دول."

قال تهامي: "آخر كلام..."

حلمي نزل من السيارة متحدثًا لنرجس: "استني أجي أوصلك."

قالت نرجس: "لا، شكرًا، مش عايزة أتعَبك."

قال حلمي: "أتعبك لا، طبعًا، ميصحش، اتفضلي، اتفضلي، هو المكان قريب."

قال نرجس: "أه، الشارع اللي جاي يمين."

حلمي لنفسه: "ياريته كان بعيد."

سارت نرجس ولكن جعلت مسافة بينها وبين حلمي تزيد عن نصف متر، وضمت ذراعيها إلى الأمام، وكانت خطواتها قصيرة ومتقاربة وسريعة.

قال حلمي متحدثًا لنرجس: "ممكن أسألك سؤال شخصي؟"

قالت نرجس: "لو في حدود اللياقة، مفيش مشاكل، اتفضل."

قال حلمي: "لا طبعًا، أكيد، هو أنت عايشة مع مين؟ ساعات بأستغرب إزاي آنسة زيك تتأخر ساعات برة عن البيت. أنا آسف يعني."

قالت نرجس: "لا، ولا آسف ولا حاجة، أنا عايشة مع ماما، لأن بابا مات من عشرين سنة، وقتها كنت لسه صغيرة. وماما رفضت إنها تتجوز تاني، رغم ضغوط خوالي عليها. في الآخر قررت إنها تبعد عنهم، خدت شقة في الموسكي، وبابا الله يرحمه ساب لنا ورث يعيشنا كويس، وماما كمان ورثت، والحمد لله مستورة."

وصلوا إلى المحل، وقالت نرجس: "لحظة واحدة، هخش المحل أجيب اللي أنا عايزاه."

ليرد حلمي: "اتفضلي، اتفضلي."

لاحظت وخرجت نرجس من المحل.

قال حلمي: "لقيتي اللي انت عايزاه؟"

قالت نرجس: "لأ، في محل تاني قدام شوية."

قال حلمي: "الحمد لله."

قالت نرجس: "نعم؟"

قال حلمي: "الحمد لله إن في محل تاني قريب." ثم أضاف: "وولد حضرتك اتوفى إزاي؟ آسف لو بسألك الأسئلة دي."

قالت نرجس: "لا أبدًا، ولا آسف ولا حاجة." ثم أردفت: "ولدي أستشهد في حادثة لورة بينقل عساكر إنجليز، خبطه وهرب."

قال حلمي: "دلوقتي فهمت."

قالت نرجس: "فهمت إيه؟"

قال حلمي: "فهمتي ليه أنت معانا."

قالت نرجس: "دافع الانتقام مش هو الدافع الوحيد، ممكن كان في البداية أه،" ثم أردفت: "إحنا وصلنا، لحظة، أدخل المحل."

نرجس بعد فترة خرجت من المحل.

قال حلمي: "تمام، الحمد لله."

قالت نرجس مبتسمة: "تمام."

قالت نرجس: "بعد إذنك، هركب حنطور."

قال حلمي: "طب أجي أوصلك."

قالت نرجس: "مش طريقك، هتروح وترجع تاني، لا، كفاية كده."

حلمي: "ماشي، ثانية واحدة، هوقف حنطور."

ركبت نرجس الحنطور وتحركت، بينما حلمي لم يتركها بعينه حتى اختفت.

حلمي لنفسه وهو يسير على الرصيف: "أول مرة أحس الإحساس ده، وأول مرة أعرف معنى الحب. ضحكتها، اللي كلها رقة، بتاخدني لمكان تاني؛ مكان مليان ورد وهدوء، مليان كله عطور أول مرة أشمها. صوتها كل سكينة ودفء، وكأنه بيت دافئ في عز البرد."

صباح اليوم التالي، بدأ كل عضو من أعضاء الجماعة في مهمته. جلس حلمي في سيارة تهامي، التي أخذها منه، منتظرًا خروج لوسيان شيتو من بيته.

بعد انتظار قليل، خرج لوسيان من باب بيته وألقى التحية على حارس البيت، وكان يرتدي بدلة وقبعة إنجليزية ونظارة طبية دائرية. رجل يقارب الستين من عمره، وكان يبدو على وجهه البشاشة، يلقى التحية على كل من يعرفه في الشارع حتى وصل إلى سيارته وركبها، وأتبعه حلمي.

توقفت السيارة أمام محل بقالة، صافح لوسيان رجلًا خرج من المحل، ولكن الغريب أن الرجل، قبل أن يصافح لوسيان، نظر يمينه ويساره، ثم همس لوسيان له ببعض الكلمات وتحرك بالسيارة مرة أخرى.

توقفت السيارة مرة أخرى أمام مقهى راقٍ، نزل لوسيان وجلس به، ثم جلس معه رجل يبدو أنه يعرفه. بعد أن أنهى لوسيان قهوته، ركب السيارة وتحرك مجددًا.

أثناء انتظار لوسيان أمام المقهى، رأى حلمي الصفتي واقفًا بالقرب من المقهى، ففهم حلمي أن هذه المقهى يملكها بوريلي.

تحرك لوسيان مرة أخرى حتى وصل إلى مطبعة يملكها. المطبعة هي أحد أعماله التي يديرها، فهو يمتلك أيضًا جريدة تصدر بالفرنسية وأخرى بالعربية، ويمتلك أيضًا مكتبة لبيع الكتب والصحف والأدوات المكتبية.

انتظر حلمي أمام المطبعة ساعات، حتى قاربت الساعة الثالثة مساءً، حين خرج لوسيان من المطبعة وبيديه حقيبة جلدية صغيرة. تحرك بسيارته وذهب إلى محل ذهب ودخل به، لكنه لم يمكث أكثر من نصف ساعة. خلال ذلك الوقت، رأى أكرم بالقرب من محل الذهب، فعرف أن هذا المحل يملكه بادوفا. ثم تحرك لوسيان مرة أخرى إلى المقهى الذي جلس به صباحًا.

جلس حتى انتهى من قهوته، ثم استقل سيارته وعاد إلى منزله، وكان ذلك في الساعة الخامسة مساءً.

وقف حلمي بالقرب من منزل لوسيان، وكان ينوي عدم الذهاب إلى الموعد والمكان المتفق عليه قبل منتصف الليل. عندما دقت الساعة الثامنة، خرج لوسيان من منزله، لكنه لم يستقل سيارته، بل أشار إلى حنطور وركبه.

عاد لوسيان إلى المقهى مرة أخرى ودخلها. نظر حلمي أمام المقهى وبالقرب منها، فلم يجد الصفتي، لا بد أنه ذهب إلى الموعد.

كانت المقهى لها باب ليس بالكبير، وبها نوافذ واسعة زجاجية، لكن حين يأتي الليل تُغطى جميع هذه النوافذ بستائر بيضاء تجعل من الصعب رؤية ما يحدث خلفها.

قرر حلمي أن يدخل المقهى ليتأكد من وجود لوسيان بالداخل. دخل حلمي المقهى، وكانت هناك فرقة موسيقية تعزف بعض الألحان الغربية، ويوجد أيضًا بار يقدم مشروبات كحولية. جلس حلمي على إحدى الطاولات، وجاء النادل وطلب منه قهوة.

تلفت حلمي يمينًا ويسارًا، فلم يجد أي أثر للوسيان أو لبوريلي. جلس حلمي في المقهى حتى منتصف الليل، وعندما لم يجد فائدة من ذلك، تحرك إلى المكان المتفق عليه أمام الباب الرئيسي لمحطة القطار. عند وصول حلمي، وجد تهامي وأكرم والصفتي في انتظاره.

قال تهامي مستفهمًا: "إيه اللي أخرك كده يا حلمي؟" ثم أضاف: "طب يلا يلا، عشان الوقفة هنا مش تمام."

وصل الجميع إلى المقر المؤقت، ثم جلسوا للتحدث عن أول يوم رصد.

بعد جلوس الجميع، بدأ تهامي قائلاً: "المقر ده هينفع نيجى فيه في أي وقت. أنا بلغت صاحب البيت إنه هيكون مكتب هندسي، وهيكون شغال فيه موظفين هيجوا يشتغلوا الصبح وبالليل."

قال حلمي: "الله ينور عليك يا أستاذ تهامي، كده أفضل برضو." ثم أضاف: "إيه يا جماعة، مين هيبدأ يحكي؟ نبدأ بالصفتي."

الصفتي بدأ الحديث: "أنا مش عارف أقولك إيه، بس ماكانش في أي تفاصيل خالص في الموضوع. بوريلي خرج من بيته الساعة تمانية صباحًا، راح القهوة بتاعته ورجع بيته الساعة خمسة مساءً، بس كده. حتى مفيش حد تردد عليه غير الزباين ولوسيان، وأنت أكيد عرفت ده."

قال حلمي: "يعني أنت متأكد إنه مانزلش تاني بعد الساعة خمسة؟"

قال الصفتي: "لا طبعًا مانزلش، ولو نزل يبقى نزل بعد الساعة تمانية، بعد ما اتحركت على باب الحديد."

قال حلمي: "وأنت يا أكرم، حصل إيه معاك؟"

قال أكرم: "تقريبًا نفس اللي حصل مع الصفتي. مفيش أي تحركات غريبة من بادوفا. الصبح اتحرك على محل الدهب بتاعه، وبعد الساعة خمسة مساءً رجع بيته، وما نزلش منه لحد ما اتحركت ليكم الساعة تمانية مساءً."

حلمي لنفسه: "إيه اللي يخلي صاحب مقهى يروح بدري كده رغم إنه المفروض شغله كله يبدأ بعد الساعة خمسة؟ أكيد يا إما يكون تعبان أو عنده مشوار تاني. وفين اختفى لوسيان بعد ما دخل القهوة؟"

قال تهامي: "إيه يا حلمي، أنت بتفكر في إيه؟"

قال حلمي: "لا، أنا شاكك في حاجة، بس لازم أتأكد من حاجة الأول." ثم أضاف: "بكرة عايزين منك يا أستاذ تهامي حاجة مهمة، مفيش حد هيعرف يعملها زيك."

قال تهامي: "تمام، اتفضل قول، أنا سامعك."

قال حلمي: "عايزين نعرف هل بوريلي وبادوفا عندهم شقق تانية ملكهم في الحيز العمراني اللي حواليهم."

قال تهامي: "تمام، بس الموضوع عايز وقت."

قال حلمي: "يومين كفاية؟"

قال تهامي متعجبًا: "يومين؟" ثم صمت وأردف: "يومين... يومين، الله المستعان."

قال حلمي: "بس لما تيجي تسأل في الموضوع، لازم ما تجيبش سيرة بوريللي أو بادوفا، إلا لو كان الشخص اللي بتسأله ثقة." قال تهامي: "ودي أعملها إزاي؟" قال حلمي: "مش عارف، بس ممكن تسأل عن شقق فاضية للإيجار." قال تهامي: "وإيه اللي عرفك إنها شقق فاضية أو حتى لو هما عارضينها للإيجار؟" قال حلمي: "كلامك صح، عشان كده لازم نسأل اليهود اللي ساكنين في المناطق دي، نعرف هم ساكنين فين." قال تهامي: "تمام، توكلنا على الله." قال حلمي: "من بكرة أنا هراقب بوريللي، والصفتي هيراقب بادوفا، وأكرم هيكون مع لوسيان." قال تهامي: "ليه غيرت الترتيب يا حلمي؟" قال حلمي: "أنا محتاج أكرم يراقب لوسيان عشان في حاجة عايز أعملها قدام."

انتهى الاجتماع وغادر الجميع.

صباح اليوم التالي، بدأ حلمي بمراقبة بوريللي. وقف بسيارة تهامي منتظراً خروج بوريللي من منزله. خرج بوريللي من الباب وألقى التحية على حارس المنزل. كان رجلًا في بداية الخمسينيات، يبدو بصحة جيدة وكأنه يمارس الرياضة بانتظام. كان يرتدي بنطلون بحمالات وقميصًا، ولم يكن يرتدي قبعة أو طربوش. ركب حنطور وذهب إلى المقهى.

مر عليه لوسيان في نفس الأوقات، ولم يحدث شيء جديد في صباح اليوم الثالث، تكرر نفس الأمر ولا شيء جديد.

في اجتماع اليوم الثالث بالمقر المؤقت: قال حلمي: "إيه الأخبار يا أستاذ تهامي؟ مفيش جديد؟" قال تهامي: "فيه إن شاء الله." ثم أردف: "لبست لبس بائع متجول واشتريت كام منورة (الشمعدان السباعي اليهودي)، ورحت لشيخ الحارة بتاع الضرب الأحمر، وسألته عن أماكن سكن اليهود عشان أبيع لهم. شيخ الحارة إداني كل عناوينهم، وطبعًا مش ببلاش، ونفس الموضوع في حارة اليهود."

ثم قال: "ودي يا سيدي قوائم كاملة لعناوينهم في المنطقتين." بدأ حلمي يراجع القوائم بتركيز شديد لمدة ساعة تقريبًا، وطلب من الصفتي خريطة من مصلحة المساحة لحى الضرب الأحمر والموسكي.

بعد الانتهاء من مراجعة القوائم، وكان الجميع في الاجتماع يتساءل في صمت عن ما يفعله حلمي، حتى انتهى وبدأ الحديث مشيرًا إلى أحد العناوين في القوائم: "المكان ده في ظهر منزل بوريللي." ثم أشار إلى عنوان آخر متحدثًا: "والمكان ده في ظهر بيت بادوفا اللي في حارة اليهود."

أكمل حلمي: "الجماعة دول رغم إن حالتهم المالية كويسة، ساكنين في أماكن زحمة مخصوص. عشان كده." قال الصفتي: "عشان إيه؟ مش فاهم." قال حلمي: "عشان أرد عليك وأنا متأكد، محتاجين نراقب الأماكن دي من الساعة خمسة مساءً للساعة واحدة صباحًا، وبعد كده هنشوف."

ثم أردف: "بكرة إن شاء الله، أكرم هيفضل يراقب لوسيان، وأنا هراقب المكان اللي ورا بيت بادوفا، والصفتي هيراقب المكان اللي ورا بيت بوريللي. ده طبعًا بعد يوم الرصد العادي."

مساء اليوم التالي، وقف حلمي بالقرب من المنزل الذي خلف منزل بادوفا في حارة اليهود. وكانت الساعة حوالي الثامنة مساءً. فجأة، خرج بادوفا من المنزل الذي أشار إليه حلمي في قوائم عناوين اليهود. ابتسم حلمي وبدأ بمتابعته. ذهب بادوفا مترجلًا في شوارع الموسكي، وبعد فترة أشار إلى حنطور وركبه. تابع حلمي الحنطور حتى وقف ونزل بادوفا في أحد شوارع ، ثم ركب عربات السوارس. تابع حلمي وراءه بالحنطور حتى نزل بادوفا من السوارس في شارع الملكة نازلي (رمسيس حاليًا)، ثم توجه بادوفا مترجلًا إلى شارع الفجالة، ودخل أحد الممرات الجانبية التي بها مدخل بيت. دخله.

وقف حلمي يراقب من بعيد حتى وصل بادوفا إلى نفس المقر الذي يجتمع فيه مع لوسيان. وبعد فترة، وصل بوريللي وكان خلفه الصفتي على دراجته. ظل حلمي واقفًا وأمر الصفتي بمراقبة الشارع الخلفي للعقار. ظل حلمي حتى منتصف الليل، حتى جاء الصفتي وقال: "فيه باب تاني خلفي خرجوا منه." قال حلمي: "طب يلا، نرجع النهارده خلاص."

داخل الاجتماع في المقر المؤقت، قال حلمي: "إزيكم؟ عاملين إيه؟ كله تمام؟" ثم أردف: "الحمد لله، وصلنا اليومين اللي فاتوا لمعلومات كويسة جدًا تخلينا نبدأ نفكر في خطة عشان نعرف الناس دي بتعمل إيه."

ثم أردف: "النهاردة عايزين نعمل حاجتين: أول حاجة هنعرض اللي وصلناله، وتاني حاجة نفكر مع بعض في احتمال الناس دي بتعمل إيه."

أكمل حلمي: "أول حاجة: الناس عندها مقر في الفجالة بيجتمعوا فيه بطريقة مش عادية. كل واحد فيهم له خطة هروب من أي مراقبة للوصول للمقر ده. السؤال المهم هو: إيه اللي يخلي الناس دول يجتمعوا بالطريقة دي رغم إن محدش مركز معاهم خالص؟ لا ملك، ولا حكومة، ولا بوليس، ولا جيش، ولا غيره عايز أسمع رأيكم واحد واحد."

قال تهامي: "أنا رأيي الناس دول، زي ما إحنا عارفين، وراهم المنظمة الصهيونية، والطريقة اللي بيجتمعوا بيها دي تعليمات ونظام مدربين عليه برة مصر. التلاتة دول راحوا أوروبا أكتر من مرة، وممكن يكون كل اللي بيعملوه هو إصدار جرائد عشان ينشروا أفكارهم عند الشباب المصري اليهودي، زي القومية اليهودية وأرض الميعاد وغيرها من الأفكار الصهيونية."

قال الصفتي: "أكيد يا أستاذ تهامي، مش ده بس. اللي حضرتك بتقوله مش محتاج كل السرية دي. أكيد فيه حاجات تانية بيعملوها." قال أكرم: "فعلاً، كلام الصفتي صح. إيه اللي يخليهم يصرفوا كل المصاريف دي في شقق ورا شقق عشان يهربوا منها لو كان الموضوع جرايد ونشر أفكار بس؟ ولازم ما ننساش إن دول يهود، يعني مش بيصرفوا أي حاجة إلا لو هيكسبوا منها كتير."

قالت نرجس: "أنا مع الصفتي وأكرم، وعايزة أضيف حاجة مهمة كمان. ممكن يكون هدفهم دلوقتي نشر أفكارهم وحاجات تانية مش عارفينها وتكون عادية، بس نظامهم في مقابلاتهم ده ممكن يكون له أهداف مستقبلية تحتاج سرية أكتر."

قال حلمي: "برافو عليكِ يا نرجس. الناس دي لسه بادئين قريب وبيحطوا أساس هيمشوا عليه فترة طويلة. هيكون لهم أهداف أكبر قدام."

بتشتغل في العلن زي ليون كاسترو وناس تشتغل في السر زي التلاتة دول. ثم أردف: "أنا بقترح عشان نعرف الناس دي بتعمل إيه، لازم ندخل في المقر السري بتاعهم وكمان لازم ندخل في حياتهم."

احنا عرفنا معظم تحركاتهم، ناقص نعرف تحركات الناس اللي معاهم زي الواد اللي بيقابله لوسيان عند محل البقالة، وكمان الطريقة اللي بيخرج بيها لوسيان من قهوة بوريلي. ثم أردف حلمي: "بكرة أكرم يسأل على شغل في مطبعة لوسيان، والصفتى هيراقب الواد البقال، وأنا ونرجس وتهامي هنروح بكرة بالليل نحاول ندخل المقر السري بتاعهم."

ثم أردف حلمي: "أستاذ تهامي ونرجس، بكرة ميعادنا الساعة عشرة بالليل عند باب الحديد في المكان المعتاد، وأنت يا صفتى هاقابلك الساعة تمانية الصبح عند بيت لوسيان. ويلا كفاية كده عشان نلحق ننام."

خرج الجميع من باب المقر واحد تلو الآخر. وصباح اليوم التالي، اتجه كل من أكرم والصفتى إلى المهام المحددة لهم.

فذهب أكرم إلى المطبعة باحثًا عن عمل فيها.

دخل أكرم المطبعة ووجد شخصًا يجلس على مكتب ويقوم بتجميع الحروف للتجهيز المطبعة للطباعة. قال أكرم: "صباح الخير يا فندم." قال الشخص: "صباح الخير." قال أكرم: "لو سمحت، ألاقي فرصة شغل عندكم." قال الشخص: "على حسب، أنت بتعرف تعمل إيه." قال أكرم: "أنا اشتغلت في ورش سباكة قبل كده، وعندي فكرة مش بطالة عن شغل الطباعة."

قال الشخص: "اسمك إيه؟" قال أكرم: "أكرم، وحضرتك؟" قال الشخص: "داود، اسمي الأسطى داود." الأسطى داود رجل قصير القامة، نحيف الجسم، لم يتجاوز الخمسين بعد. ثم أردف داود: "أنا هجربك النهاردة وبكرة، بس ما تعتبرش ده موافقة على شغلك معانا. مفيش موافقة غير لما ناخد رأي صاحب المكان، الخواجة لوسيان."

قال أكرم: "ماشي، أنا موافق، كتر خيرك." داود منادى أحد عمال المطبعة: "موسى يا موسى." ثم حضر شخص طويل القامة، شديد النحافة ولكنه عريض الجسم.

قال داود: "خد أكرم جربه في الشغلانات اللي بيعملها المطبعجية الجداد، وعايز تقرير منك آخر اليوم." قال موسى: "ماشي يا أسطى، تحت أمرك." ونظر إلى أكرم قائلاً: "اتفضل معايا."

وفي نفس الوقت بدأت المهمة الثانية، وكان الصفتى في انتظار حلمي عند بيت الخواجة لوسيان. حضر حلمي وألقى السلام على الصفتى قائلاً: "صباح الخير، إيه الأخبار؟" قال الصفتى: "تمام، أديني مستني."

ثم خرج لوسيان في نفس الميعاد المعتاد، وتحرك بسيارته وتوقف أمام محل البقالة كما يتوقف يوميًا، وصافح هذا الولد الذي عرف تهامي أن اسمه ريمون، ويسكن في الفجالة، وهو أصله من الأرمن. تحرك لوسيان ليتابع خطواته اليومية التي لا تتغير، وتحدث بانتظام.

دخل ريمون إلى محل البقالة، وانتظر حلمي والصفتى حتى خرج ريمون مرة أخرى قرب الساعة الحادية عشر قبل الظهر، وركب دراجته وبدأ في التحرك وتابعه الصفتى بدراجته أيضًا تاركًا حلمي.

تحرك ريمون من السكاكينى حتى وصل إلى السيدة زينب، وكان من الحين للآخر يتوقف وينظر خلفه ليتأكد من عدم مراقبة أحد له. حتى وصل إلى مسجد السيدة زينب ووقف بالدراجة أمام باب المسجد ليربط حذاءه.

وكان الصفتى قد نزل من دراجته وتظاهر بشرب المياه من السبيل. وفى ذلك الوقت، أخرج ريمون ورقة من يده ووضعها في حذاء أحد المصلين. ووقف الصفتى مصدومًا، لا يعرف ماذا يفعل: هل يتابع وراء ريمون أو يذهب ليأخذ الورقة من الحذاء ليعرف ما فيها أم ينتظر ليعرف من صاحبها؟ فقرر الوقوف والمراقبة.

تحرك ريمون، ولكنه لم يبتعد، فقد وقف ينتظر ليتأكد من أن الرسالة قد وصلت. انتهت الصلاة في المسجد، وكان صاحب الحذاء أول الخارجين منه، رجل أربعيني ذو وجه منحوت ونظرات حادة، وفى نفس الوقت بدأ ريمون في التحرك، لقد أنهى مهمته.

وتابع الصفتى الرجل الآخر حتى دخل إلى أحد حارات السيدة زينب، ومنها إلى حارة أخرى، ودخل أحد البيوت بجوار بيت شبه مهدم.

في نفس اليوم مساء، قابل حلمي تهامي ونرجس في المكان المتفق عليه، وتحركوا جميعًا إلى المقر السري للمنظمة الصهيونية بالفجالة. وتم الاتفاق في الطريق على الخطة، حيث ستقف نرجس عند باب الدخول، ويقف تهامي عند باب الخروج الموجود في خلف العقار، ويقوم حلمي باقتحام المقر، ويجب أن يظهر الاقتحام بأنه بغرض السرقة. وفي حالة ملاحظة أي شيء غريب أو خطر من تهامي، يقوم بتظاهر بالنداء على شخص في عقار مجاور بصوت عالٍ ويقول: "عمر، عمر، عمر." أما نرجس، فيجب أن تذهب سريعًا في اتجاه تهامي ليقوم بنفس طريقة التنبيه.

دخل حلمي إلى العقار وكان المقر في الدور الأخير، وذلك بعد التأكد من مغادرة أعضاء المنظمة. وكان ذلك في تمام الساعة الثانية منتصف الليل. كان سلم العقار يضيء في بعض الأدوار والبعض لا. صعد حلمي سريعًا على مقدمة قدمه فقط حتى لا يحدث أي صوت، ووصل إلى الدور الأخير وأنفاسه تعلو وتنخفض بسرعة خوفًا من أن يراه أحد سكان العقار. وكان كل دور يحتوي على شقتين، ولكن الدور الأخير يحتوي على شقة واحدة.

أخرج حلمي عتلة معدنية، وكان يحيطها بقطعة قماش حتى يقلل من الضجيج عند استخدامها. وضع العتلة بين ضلفتي الباب وأدارها، فانكسر قفل الباب وفتح باب المقر. أدلف حلمي داخل الشقة وكانت واسعة، بها عدة غرف. بدأ يقلب كل فرش أو عفش يأتي أمامه، وأخذ ساعة على الحائط ووضعها في الشوال الذي كان معه، ووجد جرامافون وعددًا من الأسطوانات. كانت الشقة تبدو شقة سكنية وليس مقرًا للمنظمة، فكان بها غرف نوم وصالون. ثم وجد حلمي غرفة بها سفرة طعام ومكتب، وبدأ يتفحص المكتب. وجد أن أدراجه مغلقة، فاستخدم العتلة وفتح درجًا تلو الآخر، ولكن العجيب في الأمر أن جميع الدفاتر والأوراق التي وجدها بالمكتب فارغة، لا يوجد بها أي كتابة.

دخل غرف النوم وبحث في كل ركن بالشقة، لكنه لم يجد أي شيء مفيد. فرجع مرة أخرى إلى المكتب وبدأ يتفحص جميع الإدراج تحسبًا لوجود أي أدراج سرية، فلم يجد شيئًا. فأخذ جميع الدفاتر ثم دخل إلى المطبخ، فأخذ بابور جاز وجمع أدوات الطعام من شوك ومعالق وسكاكين وأطباق.

أخذ حلمى الدفاتر ووضعها حول بطنه أسفل الملابس تحسبًا لأي ظرف يحدث أثناء النزول من العقار. ثم تحرك حلمى نحو باب الشقة وقلبه يرتجف خوفًا من أن يراه أي شخص أثناء النزول، حيث أصبح الشوال ثقيلًا ويصدر ضجيجًا عند التحرك.

بدأ حلمى في النزول مسرعًا رغم ثقل الشوال، وبالدور الأول ارتطم الشوال بتربيزة السلم، ولكنه تمكن من التحكم به، لكنه أصدر صوتًا عاليًا بسبب أدوات الطعام. فخرج أحد السكان بالدور الأول وقد اجتاز حلمى بابه، فرأى ظهر حلمى والشوال وبدأ في الصراخ: "حرامى... حرامى حرامى..." بدأ جميع السكان بالخروج من شققهم.

قرب حلمى من باب العقار فخرج مسرعًا نحو تهامى الذي سمع الصراخ وقد ركب سيارته وأدار محركها. أدخل الشوال حلمى إلى السيارة وانطلق سريعًا تاركين نرجس. قال حلمى وهو يلتقط أنفاسه: "الحمد لله كنا هنروح في داهية".

قال تهامى: "الحمد لله اللي جت على قد كده. هنعمل إيه دلوقتي؟"

قال حلمى: "اطلع على المقر بسرعة، ثم أضاف: يارب تكون نرجس أخدت بالها ومشيت".

قال تهامى: "لا، ماتقلقش، نرجس شطرة وهتعرف تتصرف كويس".

وصل تهامى وحلمى إلى المقر ووجد أكرم والصفتى في انتظارهما.

قال أكرم والصفتى: "حمد لله على السلامة يا جماعة، إيه الأخبار؟"

قال حلمى وتهامى: "تمام، الحمد لله".

قال أكرم: "أمال فين نرجس؟"

قال حلمى متوترًا: "زمنها جاية إن شاء الله".

طرق الباب بعد فترة ليست بالقصيرة وفتح حلمى قائلاً: "حمد لله على السلامة يا نرجس".

قالت نرجس: "الله يسلمك، الحمد لله، أنتم كويسين؟"

قال حلمى: "تمام، الحمد لله".

جلسوا جميعًا وبدأ الاجتماع. حلمى قال: "عملت إيه يا أكرم؟"

قال أكرم: "انهاردة جربوني في شوية حاجات في الشغل، وبكرة هقابل الخواجة لوسيان".

قال حلمى: "تمام، كويس جدًا، برافو عليك، دورك مهم جدًا يا أكرم، وأهم حاجة الحذر"، ثم أضاف: "وانت يا صفتي".

بدأ صفتي يحكي ما حدث في المراقبة وحلمى يسمع باهتمام شديد حتى انتهى صفتي عند (ودخل الرجل في بيت بجانب بيت شبه مهدم).

فظهر على حلمى الدهشة الشديدة متحدثًا: "الحارة اللي جوة حارة دي قدام مدخلها قهوة".

قال صفتي: "أه، فعلاً".

قال حلمى: "أنا لازم أروح المكان ده بكرة عشان أتأكد بنفسي".

قال تهامى: "إيه يا حلمى، فهمني في إيه".

قال حلمى: "فاكر الجماعة اللي قتلوا لي ستاك كان منصور أفندي بيقابل ناس في نفس البيت ده".

قال تهامى: "معقولة اللي جاب الشامي عند المغربي".

قال حلمى: "مش عارف، الموضوع باين عليه أكبر مما كنا نتصور".

قال تهامى: "قولي طيب، لقيت إيه في مقرهم ولاد الهرمة دول؟"

قال حلمى: "للأسف ملقتش حاجة أفهم منها اى حاجة، بس لقيت حاجة غريبة، لقيت دفاتر وورق فارغ مقفول عليهم في المكتب".

قالت نرجس: "دفاتر فارغة؟"

قال تهامى: "لو جبتها معاك، عايز أشوفها".

أخرج حلمى الدفاتر من أسفل ملابسه وبدأ الجميع في تفحصها.

قالت نرجس: "الدفاتر دي فيها حاجة غريبة، الورق بتاعها كأنه اتفتح واتقفل كتير، يعني كأنها استخدمت قبل كده بس مش عارفة إزاي".

قال تهامى: "فعلاً، برافو عليك يا نرجس، ممكن كان مكتوب فيها بالرصاص وبعد كده اتمسح".

قال صفتي: "كان هيبان الرصاص، كان هيبان يا أستاذ تهامى".

صمت الجميع لحظات ينظرون إلى الدفاتر الفارغة حتى تحدث حلمى: "إحنا عايزين مكوى".

قال تهامى: "مكوى سهلة.. مع أنى مش فاهم حاجة بس أجبلك مكوى حالًا، المكان مفروش من جميعه وفيه وبور ومكوى، بس قبل ما هتعمل أي حاجة لازم أفهم".

قال حلمى: "أنا هقولكم معلومة عندى ممكن تكون مش عندكم، سعد زغلول باشا وعبد الرحمن فهمى باشا كانوا بيراسلوا بعض في ثورة ١٩١٩ بحبر الكتابة، مش بتظهر إلا لما يتعرض لحرارة غير مباشرة".

قال تهامى: "فعلاً، إحنا كنا مستغربين من رغم الحصار الشديد على سعد باشا في المنفى من الإنجليز، بس كانت برضه توصلنا تعليمات منه، بس يا حلمى، أنت عرفت الكلام ده إزاي؟".

قال حلمى: "مش مهم دلوقتي، هقول لحضرتك بعدين، ممكن تحط المكوى على الوبور وتجبلى حتة قماش تكون تقيلة".

بدأ حلمى بوضع القماش على الورق وكوى القماش ثم أزال القماش، لكن لم تظهر أي كتابة في الدفاتر.

ظهر على حلمى الإحباط والحيرة، وعم الصمت بين الجميع لحظات.

قال تهامى: "إيه حلمى، هنعمل إيه؟".

لم يرد حلمى.

قالت نرجس: "لو كلامك صح، أكيد في طريقة تانية نظهر بها الكلام، وأنا عند إحساس إن الورق فيه كلام مش ظاهر".

ليتذكر حلمى أنه خلال الحرب العالمية الأولى قد استخدم الحبر السري بكاشف الأمونيا.

حلمى لنفسه: "معقول يكونوا لحقوا يستخدموا الأحبار التانية؟"، ثم أضاف: "أستاذ تهامى، أنا عايز نشادر".

قال تهامى: "نشادر سهلة، أعتقد إني حاطط في صندوق الإسعافات هنا نشادر، ثانية واحدة أجيبهالك".

قال صفتي: "إيه اللي هيكون في الدفاتر دي، مش عايزين حد يقرأه أكيد بلاوي سوداء".

قال حلمى: "أكيد يا صفتي، عشان كده كانوا بيأمنوا وصولهم للمقر، عشان مفيش حد يوصل له".

قالت نرجس: "المشكلة إن الناس دي مفيش حد في البلاد ولا حكومة الوفد ولا حتى الملك عارفين بيخططوا إيه".

قال حلمى: "أكيد الموضوع له علاقة بالوطن المزعوم بتاعهم، الناس دي على مستوى تنظيمى هايل يخليهم يدخلوا أي بلد عربي ويخربوا فيها من غير ما الناس اللي فيها ياخدوا بالهم".

ثم أحضر تهامى زجاجة النشادر وطلب حلمى من الأستاذ تهامى قطعة قطن، وبدأ يغرقها بالنشادر ويمررها على أسطر صفحات الدفتر، وبدأ يظهر الكلام باللون البرتقالي.

قال حلمى مبتسمًا: "الحمد لله".

تهلل وجوه الجميع فرحًا، وقال تهامى: "الكلام باللغة الفرنسية".

ثم أضاف: "إيه ده، دا أسماء وعناوين يهود في مصر".

وعندما بدأ تهامى القراءة حتى وصل إلى نهاية الصفحة، فأختفى جميع الكلام أعلى الصفحة.

قال تهامى: "إيه يا حلمى، ده الكلام بيختفي تاني؟".

قال حلمى: "للأسف، ده متوقع، لازم نبدأ نظهر الكلام وننقله في دفاتر تانية"، ثم أضاف: "خدوا بالكم يا جماعة من العلامات اللي قدام كل اسم، أكيد العلامات دي ليها سبب، لازم نعرفه، ولازم ننقل كل حاجة موجودة في الدفاتر، ودي مهمة الأستاذ تهامى ونرجس والصفتى".

ثم أضاف حلمى: "بكرة أكرم لازم يكون في المطبعة، وأنا هطلع مع الصفتي الصبح على الساعة عشرة أشوف بيت الراجل اللي خد ورقة لوسيان".

قال حلمي: "أكرم، بكرة لازم تركز في كل اللي هيحصل من لوسيان في المطبعة." ثم أضاف: "نروح دلوقتي وبكرة الساعة ١٢ بالليل نتقابل."

تحرك الجميع إلى الخارج، وقال حلمي أثناء الخروج من المقر السري لنرجس: "نرجس، تسمحيلي أوصلك؟"

قالت نرجس: "ياريت، أنا كل يوم بتعب الأستاذ تهامي."

قال تهامي: "يلا يا نرجس عشان أوصلك."

قال حلمي: "بعد إذنك، يا أستاذ تهامي، أنا هوصل نرجس."

قال تهامي: "يا بني، هو أنت معاك أتومبيل؟"

قال حلمي: "هنركب حنطور، إحنا بقينا الفجر."

قال تهامي: "ماشي، على راحتكم. سلام عليكم."

قال حلمي: "ممكن نتمشى الأول في الشارع، وبعد كده نركب الحنطور."

قالت نرجس: "مفيش مانع."

بدأت نرجس الحديث قائلة: "ممكن أسألك سؤال غريب شوية."

قال حلمي: "اتفضلي."

قالت نرجس: "الأفكار اللي بتقولها لنا بتيجي على بالك إزاي؟"

قال حلمي مبتسمًا: "بجد مش عارف بتيجي إزاي، بس بحاول أفكر بطريقتهم. بقول لنفسي: لو كنت مكانهم، هعمل إيه؟"

قالت نرجس: "مكانهم... مكانهم إزاي يعني؟"

قال حلمي: "إزاي... هقولك. ثم أضاف: لو فرضنا، يعني وده فرض مش هيحصل، إننا قررنا ناخد أرض ناس غيرنا من غير أي سبب، لما نبدأ نخطط لده لازم أهم حاجة في الموضوع السرية. وعشان أعرف أعمل ده، لازم يكون هناك قواعد وخطة نمشي عليها، ولازم يكون في الخطة احتمالات جميع ردود الأفعال لمالكي الأرض دي وكل الناس اللي ممكن تساعدهم في استرداد الأرض، ومصر من ضمن ملاك الأرض. فلازم أبني فيها قواعد تأثر في رد الفعل أو تعطلها، أو لو معرفتش تعطلها، نحاول نغيرها على الأقل."

قالت نرجس: "كلامك يا باشمهندس كأنك عارف اللي هيحصل في المستقبل."

قال حلمي: "المستقبل مش مجهول كله، لأني لو قرأتي التاريخ، هتلاقي في حاجات كتير بتتكرر فيه. ثم أضاف: ساعات في أماكن مختلفة وساعات في نفس المكان، عشان كده لازم نتعلم منه وناخد منه عبرًا، عشان نعرف جزء من المستقبل."

وصلوا إلى أول الشارع، وحلمي أشار إلى الحنطور وأوقفه، وأشار لنرجس قائلاً: "اتفضلي يا نرجس هانم."

أوصل حلمي نرجس إلى منزلها، وعاد إلى منزله. ثم ذهب إلى سريره، وقبل النوم بدأ يحدث نفسه: "يا ترى أنا ليه هنا، وإيه المفروض أعمله، وهل أنا موجود عشان أغير المستقبل، ولا هنا عشان أنا أتعلم وأعرف أغير حاضري ولا مستقبلي؟ ليه الباب اختارني أنا؟ إيه اللي فيا مش موجود عند حد تاني؟ ويا ترى إيه الحكمة اللي مفروض أتعلمها المرة دي؟"

وفي ظل هذا التفكير العميق، الذي لم يصل حلمي به إلى أي نتيجة، غلبه النوم.

استيقظ حلمي بعد قسط من النوم، وذهب وقابل الصفتى الساعة العاشرة صباحًا، وذهب إلى بيت الرجل الذي أخذ ورقة لوسيان.

قال حلمي: "البيت ده فعلاً عمرى ما هنساه أبداً. أنا لازم أمشي حالًا لحد يلمحني منهم. والبيت ده لازم من النهاردة نرصد كل التحركات اللي فيه."

رد الصفتى: "ماتسيبش البيت ده لحد ما نتقابل بالليل. أنا هطلع على المقر أشوف أخبار الدفاتر إيه. سلام."

وصل حلمي إلى المقر المؤقت، وألقى التحية على من فيه: "السلام عليكم، إيه الأخبار يا أستاذ تهامي؟ وصلنا لفين؟"

قال تهامي: "إحنا وصلنا لحاجات عمري ما كنت أتخيل إن الناس دي بتعملها." ثم أضاف: "قوائم كاملة بكل اليهود اللي في القاهرة والإسكندرية والبحيرة وغيرهم، وكل المعلومات عنهم، زي شاغلين إيه، عندهم ولاد قد إيه، وكمان يا سيدي، بيدفعوا اشتراك شهري ولا لأ؟"

قال حلمي: "اشتراك شهري."

قال تهامي: "أيوه، يا سيدي، كل اسم مكتوب قصاده قيمة الاشتراك اللي بيدفعه، وغالبًا بيكون تصاعدي، يعني بيبدأ بحاجة بسيطة وبعد كده بيزيد. وفي أسماء لسه مش بتدفع، ودول باقي يا سيدي، بيعملوا قصدهم علامات. يعني علامة إكس دي غالبًا إنه رافض يدفع، وده غالبًا مش مقتنع لسه بالقومية اليهودية. وفي أسماء برضو مش بتدفع، بس دول عاملين قصدهم علامات استفهام، ودول أعتقد إنهم لسه مش مقتنعين بس مترددين، يعني قربوا يقتنعوا. الناس دي وفي أسماء مكتوب قصادها علامة الدولار، دول بيدفعوا أرقام كبيرة قوي." ثم أضاف تهامي: "يا حلمي، الناس دي شغالين بنظام وترتيب، الحكومة بتاعتنا نفسها لسه مش شغالة به. وبيشتغلوا على وعي اليهود المصريين اللي إحنا نفسنا عمرنا ما شغلنا عليه. وأعتقد قريب جداً هيملكوا كل وعيهم وطاقتهم."

حلمي في نفسه: "فعلاً، يا أستاذ تهامي، هيملكوا كل وعيهم وطاقتهم، وهيحصل كوارث بعدها. بعد ٢٤ سنة، وهيأخذوا فلسطين، وبعدها بتسعة عشر سنة، هيأخذوا الجولان وسيناء."

قال تهامي مقاطعًا تفكير حلمي: "حلمي، حلمي، أنت معايا؟"

ليرد حلمي: "أه معاك يا أستاذ تهامي." ثم أضاف: "الناس دي لازم نتخلص منهم."

قال تهامي: "نتخلص منهم إزاي؟"

قال حلمي: "لازم نصفيهم كلهم."

قال تهامي: "بس لحد دلوقتي ماعملوش أي حاجة تضر البلد."

قال حلمي: "دي البداية إنهم يتحكموا في وعي يهود العالم، ويخليهم عندهم هدف واحد يشتغلوا كلهم عليه. دي أول مرحلة، وبعد كده هيستخدموا كل يهود مصر، حتى لو كان في الحشية الملكية أو في أي منصب في الدولة. وبعد كده هيشتغلوا على تغيير وعينا إحنا كمان، العرب وكل إنسان على وجه الأرض."

قالت نرجس: "بس اليهود معندهمش انتماء الا لمصلحتهم."

قال حلمي: "صح يا نرجس، عشان كده سهل تتحكم فيهم، لأنك هتبقى عارف إيه المصلحة اللي هو عايزها، وتدهلهم، وبالطريقة دي سهل تتحكم فيهم."

قال تهامي: "لا يا حلمي، أنا شايف إنك مكبر الموضوع. لازم نقعد مع بعض وناخد قرار. وكفاية إننا عرفنا هما بيعملوا إيه واطمنا."

قال حلمي: "إحنا عرفنا بس جزء من اللي بيعملوه، ماتنساش. موضوع الراجل اللي بيتواصل معه لوسيان هو هو اللي كان بيتواصل مع الجماعة اللي قتلت الجينرال الإنجليزي."

قال تهامي: "اللي أنت بتقوله ده صعب قوي. إيه اللي جاب الشامي عند المغربي؟"

قال حلمي: "لما يكون الشامي فاكر المغربي شامي زيه."

قال تهامي: "لا، أنت باين عليك، قلت النوم مأثر فيك شوية."

قال حلمي: "يا أستاذ تهامي، فكر بس براحة. الناس دي مصلحتها إن مصر متكونش عندها حكومة ولا برلمان، ولا حتى تكون مستقلة. وموت الجنرال كان من أسباب استقالة حكومة سعد باشا ورجعنا خطوات في أخذ استقلالنا. عشان هما لما ياخدوا أرض فلسطين، زي ما بلفور وعدهم، ما يكونش في دولة عربية قوية تقف في وشهم."

قال تهامي: "حتى ولو ده احتمال، يبقى احتمال بعيد جداً."

قال حلمي: "هي دي طريقتهم، يشتغلوا في الطريقة اللي مفيش حد يتوقعها من بعيد لحد ما يوصلوا للي هما عايزينه."

وفي وقت المناقشة الحادة بين تهامي وحلمي، كان أكرم يعمل في المطبعة في انتظار الخواجة لوسيان للموافقة عليه.

حضر الخواجة لوسيان في مواعيده المعتادة وبدأ يراجع حسابات المطبعة على مكتبه الموجود في مدخل المطبعة. وكان أكرم يراقبه عن بُعد في انتظار أن يقوم الأسطى داود باستدعائه لمقابلته. ولكن بعد قليل، دخل المطبعة الخواجة بوريلي وأخذ يهمس في أذن لوسيان، فأخذه لوسيان وأدخله في غرفة بالمطبعة وأغلق الباب عليهما.

وجد أكرم أنه يمكن أن يقترب من تلك الغرفة بحجة أنه يقوم بالبحث عن عدة عمل، فاقترب من الغرفة ووضع أذنه على بابها. قال بوريلي بصوت منخفض لوسيان: "بقولك، الشقة اتسرق منها الدفاتر بتاعتنا."

قال لوسيان: "مين قالك؟"

قال بوريلي: "ريمون جالي القهوة وقال لي."

قال لوسيان: "اتسرق منها الدفاتر بس؟"

قال بوريلي: "لا، الجرامافون والساعة وأدوات المطبخ وحاجات تانية."

قال لوسيان: "يبقى أكيد حرامي عادي."

قال بوريلي: "يعني ريمون لازم يعمل محضر عشان يبان إن الأمور عادية."

قال لوسيان: "أه، مفيش مشاكل، روح أنت النهاردة لمّ كل اللي يخصنا في الشقة، وأنا هتصرف في مقر صعب يحصل تاني كده فيه." ثم أردف: "أهم حاجة النسخة الثانية من الدفاتر معاك."

قال بوريلي: "معايا، مخبيها عندي. هنطلعها ونعمل منها نسخة ونخبيها تاني."

أثناء تصنت أكرم على لوسيان وبوريلي، لاحظ داود عدم تواجد أكرم، فبحث عنه في المطبعة ووجده بالقرب من باب الغرفة، ولكن انصرف أكرم سريعًا بعد أن أحس أن داود قادم.

خرج لوسيان وبوريلي من الغرفة وقد انصرف أكرم إلى عمله. بعد فترة وجيزة، قال داود لأكرم: "أكرم، تعالى، الخواجة لوسيان عايز يشوفك."

أكرم تحرك في اتجاه داود وأخذه داود إلى لوسيان.

قال لوسيان: "ازيك يا أكرم، مبسوط معانا؟"

قال أكرم: "أهم حاجة يا فندم إن حضرتكم تكونوا مبسوطين مني."

قال لوسيان: "لا، لا، الأسطى داود بيشكر فيك كتير، وانت من النهاردة معانا، اعتبر إنك من أصحاب المطبعة."

قال أكرم: "شكرًا يا فندم، كتر خيرك."

قال لوسيان: "يلا بقى يا بطل على شغلك، عايزين نشوف همتك."

وبعد انصراف أكرم، قال لوسيان لداود: "من النهاردة موسى الواد ده شغلته، من النهاردة يعرف كل تحركاته ويعرف كل اللي بيقابلهم، وعايز كل يوم تقرير عنه."

الساعة الثانية عشر منتصف الليل نفس اليوم في اجتماع بالمقر المؤقت.

بعد جلوس الجميع، قال حلمي: "احنا وصلنا لمعلومات في فترة صغيرة هايلة ولازم نبدأ ناخد شوية قرارات مع بعض، بس الأول عايز أعرف من أكرم والصفتى في جديد النهاردة." ثم أردف: "اتفضل يا أكرم."

قال أكرم: "النهاردة في أول النهار وصل بوريلي المطبعة وهمس في ودن لوسيان، وبعد كده أخذه لوسيان إلى غرفة الورق في المطبعة، وأنا رحت وراهم وسمعت هما بيقولوا إيه." ثم أردف: "كان بيتكلم في موضوع سرقة المقر السري بتاعهم، والحمد لله لوسيان كان مقتنع إن دي عملية سرقة عادية، وكمان عرفت إن في نسخة تانية من الدفاتر عند بوريلي."

قال حلمي: "برافو عليك يا أكرم، طمنتني." ثم أردف: "وأنت يا صفتى، مفيش جديد عن صاحب البيت أو أي معلومات عنه؟"

قال الصفتى: "برعى الدرع، اسمه كده، صاحب البيت واللي بيستلم الورق من ريمون بالطريقة أيها بلطجى، السيدة زينب والمدبح، وكل اللي في المنطقة بيخافوا منه حتى الفتوة بتاعهم بيعملوا له ألف حساب، عشان حواليه شوية حشاشين وحرامية، وبيروح يسهر كل يوم في أماكن بيسهر فيها الأجانب، وله علاقات معهم كتير."

قال حلمي: "إيه رأيك يا أستاذ تهامي، لسه معترض؟"

قال تهامي: "أيوه طبعًا معترض، لأني كل ده ما يثبتش إن الجماعة دول عملوا حاجة ضد مصر يستاهلوا عليها الموت."

قال حلمي: "إزاي بس، دول ناس عندهم حلم على حسابنا إحنا والعرب كلهم."

قال تهامي: "خلاص يا حلمي، هناخد برأى الأغلبية." ثم أردف من موافق أن نصفي لوسيان وبادوفا وبوريلي طبقًا للمعلومات التي لدينا؟

لم يرفع يده سوى حلمي وبعدها لاحظت نرجس.

قال تهامي: "خلاص، من بكرة نكمل بنفس طريقة الرصد لحد ما نوصل لكل المعلومات عن الناس دول، ولو وصلنا لأي حاجة تضر مصر، هناخد قرار بتصفيتهم.

يلا يا ولاد، اتفضلوا عشان تلحقوا تناموا شوية قبل شغل بكرة."

تحرك الجميع إلا حلمي ونرجس. ظل حلمي صامتًا لفترة لا يتكلم، حتى بدأت نرجس بالكلام: "حلمي، مش هتوصلني."

قال حلمي: "أنت ليه وافقتي على كلامي؟ أنت مقتنعة به؟"

قالت نرجس: "الصراحة لأ.. بس مقتنعة وواثقة في أفكارك. أنا على طول عندي إحساس أنك عارف اللي هيحصل قدام، أقصد يعني بتتوقعه صح. وطريقة تفكيرك غيرنا، وسابق أفكارنا على طول." ثم أردفت قائلة: "لكن الصراحة، اللي احنا وصلنا له لحد دلوقتي ما يخلناش ناخد القرارات دي."

قال حلمي: "أنتي صح، أنا شايف اللي هيحصل قدام كأني عشته بالضبط، وربنا يستر من اللي جاي... يلا عشان أوصلك."

خرج حلمي ونرجس إلى الشارع وبدأ حلمي بالكلام: "أنتي عندك قدرة كويسة جدًا إنك تقرأي طباع وأفكار الناس."

قالت نرجس: "الصراحة، القدرة دي ما اكتشفتهاش غير لما اتعرفت عليك."

قال حلمي: "ده بجد؟ يعني أنت بتفهميني أنا بس."

قالت نرجس: "لا، أنا أقصد إن حضرتك علمتني كتير في الفترة اللي اشتغلنا فيها مع بعض."

قال حلمي: "آه، فهمت." واعتلت نظرة خيبة أمل مرة أخرى على وجه حلمي.

لاحظت تلك النظرة نرجس فقالت: "مش هتوقف حنطور."

أشار حلمي إلى الحنطور وهمت نرجس بالركوب متحدثًا: "بس برضه بفهمك أنت أكتر من أي حد تاني." وتحرك الحنطور. ابتسمت نرجس من بين البيشة البيضاء وودعها حلمي والابتسامة تعلو وجهه.

صباح اليوم التالي

في الساعة العاشرة صباحًا، ذهب حلمي إلى المقر المؤقت لاستكمال نقل الدفاتر ووجد نرجس تعمل فيها، فألقى التحية ثم سأل قائلاً: "إيه، أمال فين تهامي؟"

قالت نرجس: "لسه مجاش، مش عارفة أتأخر ليه النهاردة."

ثم بعد ساعة، دخل تهامي إلى المقر المؤقت وعلامات الحزن الشديد تملأ وجهه.

قال حلمي: "مالك يا أستاذ تهامي، في إيه؟"

قال تهامي: "البقاء لله يا جماعة، أكرم تعيشوا انتو."

قال حلمي: "إزاي ده حصل؟"

قال تهامي: "الصبح وهو رايح المطبعة، خبطه لوري وهرب."

قال حلمي: "لوري وهرب؟ لا حوله ولا قوة إلا بالله. إنا لله وإنا إليه راجعون. وأنت عرفت منين؟"

قال تهامي: "أخو الصغير عارف بيتي عشان كنت بروح لهم أطمن عليهم، وساعات كان بيجي ياخد مني فلوس. من ساعة ما أكرم اشتغل معانا، جه الصبح وقال لي على الخبر. روحت عملت اللازم، وحضرت الجنازة ودفنته وجيت."

قال حلمي: "طب أنا هنزل هجيب الصفتى، وهجي على هنا نتحرك كلنا مع بعض عشان نروح العزا."

تحرك حلمي ويقول في نفسه: "يارب ما يكون اللي بالي صح، ويارب أروح ألاقى الصفتى عند بيت برعي الدرع وما يكونش اتحرك هنا ولا هنا."

وصل حلمي بالقرب من بيت برعي الدرع ووجد تجمع الكثير من الناس والبوليس معهم، فاقترب منهم ووجد الصفتى سايحًا في دمائه قتيلاً. تماسك حلمي وحاول يحافظ على ردود أفعاله ثم سأل أحد الواقفين: "لا حول ولا قوة إلا بالله، إيه اللي حصل له ده؟"

رد عليه الرجل: "كان واقف لا به ولا عليه، حصلت خناقة قدامه بين شوية بلطجية في المنطقة، دخل يحوش بينهم، خد سكينة في مقتل، وقع في دمه."

بدأ يتحرك حلمي سريعًا عائدًا إلى المقر المؤقت وضربات قلبه تتسارع، محدثًا نفسه: "هما ولاد الكلب، خلصوا علينا قبل ما نخلص عليهم."

أوقف سيارة أجرة وقال له: "الازبكية بسرعة يا سطى."

نزل من سيارة الأجرة بالقرب من المقر، وخرج مسرعًا يجري في اتجاه المقر، وصعد السلم قفزًا ثم دخل فوجد نرجس تجلس وحدها والحزن يحيط بها.

قال حلمي: "فين تهامي؟"

قالت نرجس بعد وقوفها: "إيه في إيه؟ كنت بتجري ليه؟ في إيه وراك؟"

أخذ حلمي يحاول أن يجمع نفسه مرة أخرى متحدثًا: "فين تهامي؟"

قالت نرجس: "بعد ما خرجت، لقيت شباك المطبخ مكسور، وقال المكان ده مبقاش أمان. قال هيروح المقر السري يطمن عليه."

أخذ حلمي بيد نرجس وبدأ يجذبها في اتجاه الباب قائلاً: "طب يلا بسرعة نتحرك على المقر السري."

قالت نرجس: "إيه اللي حصل قولي يا حلمي."

حلمي وهو يحاول أن يجمع أنفاسه المرتجفة: "قتلوا الصفتى، قتلوا الصفتى ولاد الكلب، وأكيد هما اللي قتلوا أكرم."

نرجس وضعت يدها على فمها لتكتم صرختها، وتحرك حلمي سريعًا إلى الخارج، جاذبًا نرجس، يلتفت يمينًا ويسارًا ليتأكد من أنه لا يتبعهم أحد.

ووقف سيارة أجرة وركب هو ونرجس وعلامات الخوف والدهشة تعلو وجهيهما.

ذهب حلمي إلى بيته وأخذ مسدسه ثم تحرك مرة أخرى إلى المقر دخل هو ونرجس عبر دكان الحلاقة ثم إلى النفق، ثم وجد باب النفق مفتوحًا.

وصلوا إلى المقر، وضع يده على مسدسه وأدلف هو ونرجس داخله، ثم أغلق الباب خلفهم، ولكن لم يجدوا تهامي.

قالت نرجس: "أمال فين الأستاذ تهامي؟"

قال حلمي: "ثانية واحدة، ثانية واحدة." ثم أردف: "الحمد لله إن المقر ده أمان، كنت خايف أجي ألاقي منعم الحلاق قتيل.

أكيد في حد فينا انكشف مبارح، وولاد الكلب رصدونا وكشفونا كلنا لما اتقبلنا مبارح ودخلوا المقر المؤقت بعد ما مشينا، وعرفوا إننا عرفنا موضوع الدفاتر وطرق اللي هما شغالين بها."

قالت نرجس: "يعني كلامك ده إنهم ممكن يكونوا قتلوا أستاذ تهامي؟"

قال حلمي: "كل الاحتمالات واردة، وممكن يكون هرب منهم."

قالت نرجس: "لو هرب منهم كان وصل هنا."

وفي وسط هذه الحيرة، طرق باب المقر الأمامي. اقترب حلمي من الباب متحدثًا: "مين؟"

ثم قال من خلف الباب: "افتح، أنا باعتني الأستاذ تهامي، أصل هو عمل حادثة بالسيارة وعايزك تروح له ضروري."

أشار حلمى إلى نرجس لدخول الحمام، وأخرج مسدسه وهو يتراجع بظهره. بدأ من خلف الباب بفتح الباب عنوة حتى فتحه، فأطلق حلمى عليه رصاصًا، ولكنه لم يصبه؛ فقد اختبأ مسرعًا خارج الباب، وكان برعى الدرع وشخص آخر.

وصل حلمى إلى الحمام وأغلق الباب، وأشار لنرجس بفتح الشباك الحديد في الحمام للبدء في الهروب من فوق البيت إلى البيت المجاور. في هذه الأثناء، بدأت أصوات الرصاص تزداد من خلف باب الحمام.

فتحت نرجس الشباك وبدأت في الصعود، وكان برعى الدرع يحاول اقتحام الحمام، وحلمى يقف خلف الباب ويوجه المسدس نحوه. ثم سمع حلمى صوت الرصاص يأتي من الشباك.

تحرك حلمى مسرعًا نحو الشباك ،ونادى : "نرجس.. نرجس.. نرجس".

ذهب حلمى إلى الشباك ووجد نرجس تحاول أن تتماسك بالسلم المعدنى، لكنها سقطت إلى أسفل. بدأ حلمى يطلق الرصاص في اتجاه من أسفل البيت، ثم عاد إلى الباب الحديد ليفتحه وينتقم لأصدقائه.

لكن عندما فتح الباب، وجد نفسه داخل الشركة، إذ ظهر حول الباب إطار المسامير النحاسية الضخمة.

صاح حلمى: "لا.. لا.. لا".

تحرك نحو لوحة الكهرباء سريعًا محاولًا أن يعود مرة أخرى للانتقام. فعل كل ما يمكنه للعودة مرة أخرى، وعاد سريعًا ليجد الباب في مكانه المعتاد، لكنه الآن يجب أن يعرف الحكمة.

وقف حلمى مشتت الأفكار يحاول أن يجمع أنفاسه وأفكاره، ثم نطق: "إذا لم تتحكم في وعي من حولك، تحكم فيه آخرين".

بدأ حلمى بإدارة مقبض الباب، لكنه لم يفتح. ثم نطق مرة أخرى بنفس الحكمة وحاول مرة أخرى، لكن الباب لم يفتح.

بدأ حلمى بالصراخ: "ليه.....ليه..... ليه؟"

ثم تذكر فكرى حديثه مع نرجس عن أن الماضي يتكرر ويجب التعلم منه حتى نعلم جزءًا من المستقبل. وقف مرة أخرى أمام الباب ونطق:

"لا تحاول تغيير الماضي. الماضي حدث، تعلم منه فقط".

ثم وضع حلمى يده على المقبض وأدارها، فأدارها معه لكنه توقف ولم يفتح الباب. ذهب إلى مكتبه ووضع رأسه عليه وذهب في النوم.

صباح اليوم التالي، فهمى يحاول إيقاظ فكرى: "فكرى.. فكرى.. فكرى.. أصحى يا فكرى، إيه اللى نايمك كده بس على المكتب؟"

قال فهمى: "وياترى خلصت اللى أنت عاوزه ولا سبتها ونمت على مكتبك؟".

قال فكرى: "إيه إيه، ابعد عني يا عم، عايز أنام تعبان، سبني أنام شوية".

قال فهمى: "أنام؟.. يا عم قوم الساعة تسعة الصبح، قوم ابصم ولا روح لو تعبان".

بدأ فكرى في الاستيقاظ قائلاً: "إيه ده؟ أنا حاسس إن الموقف اتكرر قبل كده، أنت بتصحيني النهاردة ولا إمبارح ولا بكرة؟".

قال فهمى: "النهاردة ولا إمبارح ولا بكرة، مش فارقة، كل يوم باقي شبه اللي قبله ومفيش حد بيتعلم".

بدأ فكرى في استعادة ذكريات كل ما حدث أمس، وهم واقفين، وأخذ ورقة من على المكتب بدأ يكتب فيها، ثم ترك القلم قائلاً:

"أنا أجازة النهاردة، وطلب الإجازة أهو يا فهمى، ابقى قدمه للمدير".

أخذ فكرى متعلقاته وبدأ في الرحيل دون أن يلقى التحية على أي شخص بالعمل، وخرج إلى الشارع ولم يركب سيارته بل تركها أمام الشركة وسار يمشي بالشوارع التي عاش بها أمس من مائة عام، وكأنه هائم على وجهه لا يريد أن يعرف طريقه. وعقله يطرح كل التساؤلات التي كان يطرحها منذ ذهابه إلى الأوفيس من ثلاثة أيام لعمل كوب شاي...

ماذا يحدث لي؟ هل هذا حلم أم حقيقة؟ ولو كان حقيقة، لماذا اختارني هذا الباب اللعين؟ من هو حلمى الذي أعيش شخصيته في رحلتي داخل هذا الباب؟

في خضم تسارع الأفكار، بدأ مرة أخرى يفكر كأحلمى ليطرح بعض التساؤلات الأخرى.

كيف عرف لوسيان وأعوانه المقر السري؟ وأين ذهب تهامى؟ هل قُتل أم استطاع الهرب؟

أفاق فكرى من غيبوبة التفكير وطرح الأسئلة التي لا يملك لها إجابة على أنه وصل سيرا إلى العباسية بجوار بيته.

دخل فكرى بيته والقى التحية على ولده: "السلام عليكم يا بابا".

والده الحاج عبدالدايم: "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته... حمد الله على السلام يا فكرى". ثم أردف: "شكلك تعبان".

ليرد فكرى: "آه والله يا بابا، آسف مش هقدر أقعد معاك، هخش أنام على طول".

دخل فكرى غرفته ووقف أمام فراشه الذي لم ينام عليه منذ ثلاثة ليالٍ، محدثًا إياه قبل أن يلقى نفسه عليه من التعب:

"يترى هتعرف ترد ليه نرجس في أحلامي النهاردة؟".

ليغرق في نومه دون حتى أن يقوم بتغيير ملابسه.

نام فكرى يومًا بليلة ليستيقظ من نومه فزعا على صورة الصفتى وهو قتيل، التي لم تترك ذهنه لحظة واحدة.

استيقظ فكرى فزعًا من نومه عند شروق الشمس لليوم التالي. جلس على فراشه ناظرًا إلى الشباك الذي بدأت أشعة الشمس تتسلل منه، وهو يحاول أن يفتح عينه ليبدأ يومًا آخر يترقب أحداثه. وقف بالقرب من الشباك يتابع الشروق وهو يقول:

"دائمًا يأتي الشروق بالأمل". ثم بدأ يردد في عقله: "تهامى.. تهامى الضوى".

بدأ بتجهيز نفسه ليذهب إلى عمله، وخرج من بيته كأنه متأخر عن ميعاد هام، ليصل إلى مقر الشركة أول الواصلين دائمًا.

وقف على باب القسم ينظر ويترقب كل من يصل حتى وصل الأستاذ الضوى ليُلقي التحية على فكرى: "السلام عليكم، إزيك يا فكرى النهاردة؟". ثم أردف: "إمبارح كان شكلك تعبان قوي".

ليأخذه فكرى من يده ويذهب به إلى مكتبه ويجلسه قائلاً: "أنا هسألك سؤال، يارب تكون عارف إجابته".

قال الضوى: "اتفضل، أنا سامع".

قال فكرى: "تعرف جدك تهامى مات إزاي؟".

قال الضوى: "مات موتة ربنا".

قال فكرى: "أبوس إيدك، مش وقته، كلنا هنموت موتة ربنا، طب بلاش، ثم أردف: مات إمتى؟".

قال الضوى: "افتكر والدى كان قالى مرة إنه تقريبا مات ١٩٤٢ أو ١٩٤٤، يعنى غالبا فى الأربعينات."

ثم تهلل وجه فكرى قائلاً: "الحمد لله... الحمد لله."

قال الضوى مستغربًا: "الحمد لله أنه مات؟"

قال فكرى مبتسمًا: "شكرًا يا أستاذ الضوى، شكرًا."

ثم ذهب فكرى إلى مكتبه محدثًا نفسه: "كده الأستاذ تهامى أكيد بخير."

وبدأ فكرى يتعجل الوقت لكى يدخل إلى الباب مرة أخرى ليعرف جميع التساؤلات التى تدور فى عقله، ومتحمسًا للانتقام لنرجس والصفتى وأكرم.

كان يوم عمل هادئًا لا يوجد به أى صعوبات أو اجتماعات عجيبة.

وجاء وقت ذهاب الموظفين، وجلس فكرى بداعى تجهيز مقاييس جديدة مهمة.

جاءت الساعة الثانية عشر، وذهب فكرى إلى لوحة كهرباء الدور ليفعل كما يفعل كل مرة لكى يستحضر الباب.

وقف فكرى أمام الباب يأخذ أنفاسه ويستعد للدخول إليه كأنه يتأهب لسباق جرى فى بطولة عالمية.

وبدأ ينطق بالحكمة ويضع يديه على قبضة الباب:

"لا تحاول تغيير الماضى... الماضى حدث، تعلم منه فقط."

فتح فكرى الباب ليشم رائحة كريهة جدًا لم يقدر على تحملها، ليغلق الباب بشكل تلقائي ويجد نفسه داخل حمام تتناثر فيه الفضلات البشرية. فتح الباب بحذر وضعًا يده فوق أنفه لا يكاد أن يتنفس، ليُرى مجموعة أفراد يرتدون الزى الأبيض، ويقف أمامهم رجل يبدو أنه شرطى يمسك دفترًا وينظر فيه.

خرج حلمى ليجد نفسه يرتدي نفس الزى الذى يرتديه الآخرون، ليقف بينهم.

صُدم حلمى وعلم أنه داخل سجن، بدأ ينظر لكل أركان العنبر الذى تملأه القذارة. ليتفاجئ بصوت الشرطى وهو يقول له: "اسمك إيه؟"

لم يرد حلمى من وقع الصدمة، ثم كرر الشرطى السؤال مرة أخرى بصوت أعلى قائلاً: "اسمك إيه يا مسجون؟"

ليرد حلمى: "اسمى حلمى..."

الشرطى بصوت أعلى، وهو يبدو عليه الغضب: "حلمى إيه، ملكش أب، ابن حرام يعنى؟"

ليضحك جميع السجناء وهم يحاولون ألا يعلو صوت ضحكاتهم.

ليرد حلمى: "حلمى... حلمى."

ليخرج تهامى من بين السجناء قائلاً: "حلمى فتح الله، فتح الباب."

ليكرر حلمى: "أيوه، حلمى فتح الله، فتح الباب."

قال الشرطى: "إيه، كنت ناسى اسمك؟" ثم أضاف، نظرًا إلى تهامى: "ومين إذن لك بالكلام، أنت كمان؟"

ليرد تهامى: "آسف يا فندم، أصل حلمى تعبان شوية ومش مركز من الصبح."

ليبدأ الشرطى بالنظر طويلاً بالدفتر كأنه يتأكد من وجود جميع الأسماء الموجودة بالدفتر، ثم بدأ بالتحدث قائلاً: "المرة الجاية في التفتيش، مش عايز أشوف القرف ده والزبالة المرمية في كل حتة. والحمام ينضف والزبالة لموها في شوال في أى ركن." ثم أضاف بصوت عالٍ: "مين كومندت العنبر؟"

ليظهر رجل نحيف الجسم قصير القامة قائلاً: "أنا يا بيه."

ليرد الشرطى: "اسمك إيه؟"

السجين قائلاً: "السيد حنفى."

الشرطى بصوت عالٍ: "أنت المسؤول قصادي يا سيد، هحسبك أنت المرة الجاية."

السيد حنفى يهز رأسه: "إحنا تحت أمرك يا بيه."

بدأ الشرطى بالانصراف وأغلق العنبر، وذهب حلمى باتجاه تهامى وبدأ في الحديث قائلاً: "حمد الله على السلامة يا أستاذ تهامى."

ليرد تهامى في تعجب: "حمد الله على السلامة، أنت كل ده في الحمام؟"

بدأ تهامى بالتحرك نحو المكان المخصص لهم بالعنبر، وجلس ثم جلس حلمى بجواره.

بدت على وجه فكرى الحيرة، كيف سيكون رد فعل تهامى عندما يقول له حقيقة أنه ليس بحلمى.

حلمى متردداً بكلامه: "أستاذ تهامى، ممكن أسألك سؤال غريب؟"

قال تهامى: "اتفضل، أنا سمعك."

قال حلمى: "مين حلمى فتح الله، فتح الباب؟"

قال تهامى: "ولا غريب ولا حاجة، أنا حلمى فتح الله." ثم أضاف: "أنت عبيط يا ابني، إيه السؤال ده؟ جرى لك إيه يا حلمى، هو الهزار مناسب في الوضع اللى إحنا فيه ده؟"

ثم أضاف "متهمًا فى قضية قتل وفقدنا ثلاثة من أعز أصدقائنا، وأنت جى تهزر، إيه مخك اتلحس؟"

ليصمت حلمى، ثم يفاجئ تهامى بكلمات لم يتوقعها: "الحجر الفرعونى والرسالة اللى بيظهر فيها الكلام لم تتبل ميا."

يظهر كل علامات الدهشة والمفاجأة على وجه تهامى قائلاً: "إيه اللى عرفك الكلام ده؟ ثم أضاف: "الموضوع ده مفيش جنس مخلوق يعرفه غيرى."

ليرد حلمى: "مش طالب منك إلا الصبر وتسمع كل اللى أنا هقوله للأخر."

بدأ فكرى بسرد القصة كاملة منذ ذهابه إلى الأوفيس ليشرب كوب شاي حتى فتح باب حمام العنبر.

لم يتفوه تهامى بكلمة واحدة، بل كان ينصت بكل تركيز.

بعد انتهاء فكرى من الحديث، أعاد السؤال مرة أخرى على تهامى: "من حلمى، يا أستاذ تهامى؟"

حاول تهامى أن يبدأ بالكلام، ولكن الكلمات لم تجد طريقها إلى فمه، وبدأ بوضع يده على وجهه وبدأ في دعجه، ثم أخذ نفسًا عميقًا وبدأ قائلاً: "يعنى حكاية الحجر بعد أكثر من ثلاثين سنة طلعت بجد."

ثم أضاف: "أنا دلوقتي عرفت ليه الباب ماكنش بيفتح زمان."

قال فكرى: "أستاذ تهامى، أنت أكيد فهمت حاجة، ياريت تفهمني."

قال تهامى: "أنت اللى مفروض تفهمني، الباب اختارك أنت عشان تعيش جزءًا من حياة حلمى، عشان تفهم اللى حلمى نفسه ما فهموش."

قال فكري: "طب، مين حلمي؟ أظن دلوقتي لازم تحكيلي، وكمان لازم أعرف احنا دخلنا السجن إزاي."

قال تهامي: "حلمي مهندس شغال معايا في المكتب الهندسي بتاع المهندس ديميتري، المهندس الإيطالي اللي شغال معاه."

ثم أضاف: "في نفس المكان اللي أنت شغال فيه، في المستقبل، الحجر طلع لازم يسجل الحياة في الماضي، ويختار حياة شخص عشان يتعلم الحكمة له واحد تاني في المستقبل."

"وده أكيد اللي كان بيحصل زمان في معابد الفراعنة، الكاهن يعيش حياة كاهن تاني في الماضي، يتعلم منها الحكمة لينقلها للمستقبل، وبالطريقة دي يحافظ على الحكمة بينهم."

ثم أضاف تهامي: "عرفت مين حلمي؟ عرفت أنت مين. كل واحد فينا لازم يعرف هو مين عشان يعرف المفروض يعمل إيه ودوره إيه في الحياة."

ثم أضاف تهامي: "وأنت يا فكري، دورك في حياة حلمي أنك تأخذ بتار أصحابه وأحبابه، أكرم والصفتى، والله يرحمها نرجس، اللي احنا متهامين في قتلها."

حلمي، ووجهه يملأه الحزن الشديد: "ممكن تحكيلي انت رحت فين بعد ما شفت شباك المطبخ مكسور في مقر الأزبكية؟"

تنهد تهامي وبدأ بالكلام: "لما رجعت من جنازة أكرم، الله يرحمه، وعرفت في الجنازة أن الناس اللي شافت الحادثة قالت إن السواق كان قاصد يخبط أكرم."

"بدأ الفأر يلعب في عبّي، ورجعت ليكم جري، بس مرتضتش أقول أي حاجة لك غير لما أتأكد. لما انت مشيت عشان تجيب الصفتى، بدأت أبص على كل المداخل بالمقر، لحد ما لقيت شباك المطبخ مفتوح بالعافية. جريت على المقر السري لأن رحتو اليومين اللي فاتوا كنت بخبي فيه الدفاتر اللي بنخلص نقلها."

"وصلت لحد منعم الحلاق، ووقفت أرقب من بعيد، من غير ما حد يشوفني، لحد ما واحد شكل البلطجية دخل. وطول جوة خفت أقرب ويسمعوا لي، وبعد ما مشى، طلع منعم وبص يمين وشمال، وبعد كده دخل. مشيت ورا البلطجي لحد ما وصلت عند المقر بتاعنا من طريق الشارع، مش من النفق. طبعًا استنتجت إن منعم باعنا وباع سر المقر اللي فضلنا كتمين سره سنين ندخل ونخرج فيه بيت مهجور لصاحبه اللي مهاجر، ومفيش حد يشعر بينا."

"رجعت بسرعة عند منعم عشان أعرف إزاي باعنا، لكن للأسف لاقيته قفل المحل ده تقريبًا بعد ما أنت ونرجس دخلتوه للنفق. حسيت بالغدر، وجريت على مكان المقر تاني، لكن للأسف سمعت صوت رصاص قبل ما أوصل، وشفت المجرمين بيهربوا بعد ما اقتلوا نرجس. قربت منها لقيتها يا ولداه، سيحة في دمها الطاهر، وأنت طالع تجري زي المجنون ورا اللي قتلوها، ومعاك المسدس تضرب بيه عليهم، لكن مفيش فايدة. البوليس وصل وقبض عليك وعليه، وهما فص ملح وداب."

كان فكري يحاول أن يتماسك ويمنع عينيه من أن تتقاطر منهما دموعه ليكتم غيظه قائلاً: "هيدفعوا الثمن، ولاد الكلب."

قال تهامي: "اللي هيخلي عقلي يشت منّي، هما ليه عملوا كده؟ اللي يخليهم يخافوا من اللي احنا عرفناه لدرجة إنهم يقرروا يتخلصوا منّا، رغم أن أصلاً المنظمات الصهيونية والحركات التابعة لها معلنة في كل حتة. عادي، أيوه، هي مش رسمية بس معلنة. الكل عارف بيها، ولا بيعمله لوسيان واللي معاه، طبقًا للي عرفناه. عادي، دي كمان بيدعو رئيس الوزارة (أحمد زيور باشا) و(إسماعيل صدقي) لحفلاتهم." ثم أضاف: "وليه لأ... أحمد زيور بيستغل علاقة الصهاينة بدوائر اتخاذ القرارات في لندن لمصلحته، وإسماعيل صدقي شريك في أكبر شركات ملكهم (الملح والصودا وسكك حديد الفيوم ووادى كوم مبو وغيرهم)."

"إيه اللي موجود في الدفاتر، احنا مشفناهش يخليهم يعملوا كل ده؟"

قال حلمي: "الدفاتر، صح، هي الدفاتر. لازم نبص فيها تاني، أكيد في حاجة فيها ما شفناهاش. ثم أضاف: "عشان كده لازم نخرج من السجن."

قال تهامي: "إزاي هنعمل ده... إزاي؟ قولى."

قال حلمي: "أول حاجة، أنت اتكلمت أو قلت أي حاجة عن اللي حصل؟"

قال تهامي: "أقول إيه؟ مفيش حاجة تنفع تتقال."

قال حلمي: "كويس، يبقى أول حاجة، أنت لازم تطلع براءة."

قال تهامي: "برضه إزاي؟"

قال حلمي: "هقول إنك مكنتش معايا، وإنك كنت ماشي في شارع وجيت على صوت الرصاص."

قال تهامي: "بس كده، أنت هتشيلها لوحدك."

قال حلمي: "ولا أنت ولا أنا." ثم أضاف: "أنا كمان هطلع من هنا بس بطريقتي، بس لازم حد فينا يكون برة عشان يساعد التاني."

قال تهامي: "أنا بعد اللي عرفته من شوية، مفيش قدامي إلا أني أسمع كلام اللي باب الحكمة أختاره."

قال حلمي: "ركز معايا يا أستاذ تهامي. أول حاجة هنعملها دلوقتي، هطلب أكلم مدير السجن، وهقوله اللي يخليك تطلع في أقرب وقت، بس لازم تعرف إننا مش هنتقابل تاني حتى بعد خروجي من السجن."

قال تهامي: "إيه الكلام ده؟"

قال حلمي: "اسمعني بس يا أستاذ تهامي." ثم أضاف: "كل يوم العصر، تصلي في مسجد الحسين، وتلبس جزمة برقبة طويلة مكتوب بالخياطة عليها من أعلى حتة في الرقبة 'تهامي'. واليوم اللي هتلاقي فيه رسالة فيها يبقى أنا خرجت من السجن. ودي هتكون وسيلة التواصل بيني وبينك بعد كده."

توقف حلمي عن الحديث لحظة ثم أضاف: "غريبة، العسكرى نبه علينا ننظف العنبر، ومفيش حد عمل حاجة، ولا حتى اللي اسمه السيد حنفي قال لحد اعمل حاجة."

قال تهامي: "ولا هيعملوا حاجة. السيد حنفي قاصد تكون الريحة الكريهة دي موجودة على طول، عشان لما يشرب الهباب بتاعه، هو وحبيبه، لوحد دخل يفتش عليهم في أي وقت من غير ما يكون عنده خبر ما يشمّش حاجة منه. وهو أصلاً واخد على الريحة دي، أصله عنده مقلب زبالة برة جنب شغل تجارة الممنوع والسم الهاري."

قال حلمي: "وأنتم إزاي ساكتين على كده؟"

قال تهامي: "مفيش حد يقدر يكلم. اللي يكلم سهل قوي يموت في خناقة داخل العنبر."

التفت حلمي إلى شاب يجلس في أحد أركان العنبر يمسك كتابًا يقرأ فيه غير مبالي بما يحدث حوله.

قال حلمي: "مين ده يا أستاذ تهامي، اللي مندمج في القراءة؟"

قال تهامي: "موسى... موسى دمتيوه."

لمعت عيني حلمي وقال: "تعرف عنه أي معلومات؟"

قال تهامي: "مش كتير." ثم أردف: "شاب يهودي خريج مدرسة الحقوق، اتربى في الملجأ، وجاي هنا عشان ضرب عمه وسبّب له عاهة مستديمة."

ابتسم حلمي ابتسامة ثعلب قائلاً: "كفاية قوي المعلومات دي."

ثم وقف حلمي وتوجه نحو الباب، مناديًا على الحارس، وطلب منه أن يقابل مدير السجن. بعد ذلك، رجع حلمي مرة أخرى وجلس بجوار تهامي منتظرًا استدعاء مدير السجن، وقال لتهامي: "إحنا في سجن إيه؟"

قال تهامي: "سجن الاستئناف في باب الخلق."

قال حلمي: "تعرف إحنا نازلين فين؟"

قال تهامي: "في الدور الرابع."

استدعى مدير السجن حلمي، فأوضح حلمي ما اتفق عليه مع تهامي لمدير السجن، الذي وعد بإيصال المعلومات للنيابة لتتخذ الإجراءات المناسبة. بعد ذلك، استدعى مدير السجن تهامي، وأكد تهامي على نفس أقوال حلمي، والتي توافقت مع بعض روايات الجيران الذين شهدوا أجزاءً من الجريمة.

جلس حلمي في العنبر يطرح على نفسه بعض الأسئلة الصعبة: كيف سيتعلم من الماضي؟ وكيف سيستغل ما يعرفه من المستقبل؟ وكيف سيهرب من السجن؟ وكيف سينتقم من الثلاثة الصهاينة الأوغاد؟ وهو يداعب لحيته التي لم يحلقها منذ قدومه إلى السجن. أجاب على بعض الأسئلة وترك عقله يفكر في الإجابات الأخرى التي لم يصل إلى حلول لها حتى الآن.

مضت عدة أسابيع، كان خلالها حلمي يسرد للأستاذ تهامي ما حدث في المستقبل، وكيف سيكون حال العرب مع أصحاب الوطن المزعوم. وكلما ذكر حلمي هزيمة للعرب، كانت علامات الحزن والأسى تكسو وجه تهامي. وفي يوم من تلك الأيام بالعنبر، قام حلمي متجهاً إلى مكان جلوس موسى دمتيوه.

قال تهامي: "رايح فين يا حلمي؟"

اقترب حلمي من دمتيوه ثم جلس بجواره، وكان دمتيوه يطالع أحد الكتب في القانون.

قال حلمي: "القانون متعملش عشان يحمي الضعفاء، القانون اتعمل عشان يحمي مصالح الأقوياء."

نظر دمتيوه إلى حلمي ولم ينطق بكلمة، ثم عاد إلى القراءة مرة أخرى. ثم همّ حلمي بالوقوف ليسمع دمتيوه يقول: "المهم تحدد أنت من الأقوياء ولا من الضعفاء اللي بيستسلموا من أول مرة."

موسى دمتيوه، شاب معتدل الطول، يمتلك جسده بعض القوة، يتحول إلى أشرس شخص في الكون حين يشعر بالظلم. ملامحه مصرية أصيلة.

قال حلمي مبتسمًا: "معقول! هل ممكن ضعيف عدم استسلامه يخليه من الأقوياء اللي القانون بيحمي مصالحهم؟"

قال موسى دمتيوه: "في نوع من الأقوياء مش بيحب حد يعكنن عليهم حياتهم... الضعيف لو قاوح معهم هياخد حقه بشرف، وفي نوع من الأقوياء هياخد قرار إنه يتخلص منه للأبد، وفي الحالة دي هيموت بشرف."

ثم أردف موسى دمتيوه: "القوة إنك تموت بشرف طالما كدة هتموت وكدة هتموت."

ظهرت الدهشة على وجه حلمي من كلام دمتيوه، فلم يكن يتوقع هذا الحديث منه.

ثم أردف دمتيوه معرفًا نفسه: "موسى دمتيوه، محامٍ."

قال حلمي: "حلمي فتح الله، مهندس."

قال موسى دمتيوه: "اللي جابك هنا يا حلمي، بنيت بيت ووقع على صحابه؟"

ابتسم حلمي قائلاً: "مش بالضبط كدة، لكن هو بيت بس مش بيت ووقع على دماغي أنا بس."

قال موسى دمتيوه: "احكي لو حابب، إحنا هنا ما عندناش غير الحكايات."

قال حلمي: "الحكاية يا سيدي بكل بساطة: حبيت واحدة ملاك ماشية على الأرض، وهي كمان حبتني. لكن أهلها ظلمونا احنا الاثنين ظلمًا يشيب له الرأس. أهلها كانوا عايزين يجوزوها لابن عمها اللي بقى بين يوم وليلة غني، ولا نعرف جاب الفلوس منين، ولا حد فيهم حتى سأله. المهم قررنا أنا وهي نهرب ونتجوز ونحطهم قدام الأمر الواقع. شوفت شقة بعيدة عنهم وأجرتها، وفي اليوم الموعود للهرب، اتقابلنا الفجر عشان أوريها مقر الزوجية قبل ما نروح عند المأذون نكتب الكتاب. لكن اللي ما كنتش أتوقعه حصل. ابن عمها كان بيراقبها، ومشي ورانا، وكمان راح قال لأهلها عشان يجوا ورانا ويقتلوها ويتهموني بهتك عرضها وقتلها. ثم أردف حلمي: ظلم يشيب له الرأس، زي ما قلت لك في الأول."

تعمد حلمي أن يحكي رواية من وحي خياله مطابقة لقضيته، تحمل الكثير من الظلم الواقع عليه، ليبدأ موسى دمتيوه بالحديث عن نفسه دون أن يسأله حلمي بشكل مباشر.

تابع موسى دمتيوه قائلاً: "مش أنت بس اللي اتظلمت ظلم كبير، أنا كمان اتظلمت."

قال حلمي: "لو حابب احكي."

قال دمتيوه: "حكاية ظلمي بدأت يوم ما أمي ولدتني وماتت. أبويا كان راجل مكافح، بيلف بؤجة على الفلاحين في دمنهور، يبيع لهم هدوم وبوابير جاز وحصر وغيره. كان مشارك عمي في كل حاجة بيشتغلوا فيها ويحوشوا ويشتروا أرض زراعية، لحد ما بقى عندهم أكتر من خمسين فدان. أبويا عيزرا، كان محبوب أكتر من عمي، يوسف، بين الفلاحين، كان يحبهم ويحبوه، وكان مشهور وسطهم. كانوا يقولوا عليه الراجل اللي ما بيموتش، عشان اتعرض لكذا سرقة وقطاع طرق كانوا يطلعوا عليه، يضربوه علقة موت وياخدوا منه الفلوس والحمار اللي معاه. لكن أبويا كان قوي، كان يرجع تاني ويمشي ويلف البلاد من غير ما يخاف ولا يتهز. لحد ما في يوم من الأيام تعب تعب ملوش علاج، وكان عندي وقتها ست سنين. جابني وقعدني جنبه وقال لي: 'يا موسى يا ابني، اسمع الكلام اللي هقوله لك كويس، وأوعي تنساه طول عمرك. كل حاجة عند عمك يوسف أنا شريك فيها.'"

ثم أردف موسى: "يوم وتاني، وأبويا مات. وبعدها بكام أسبوع، عمي بدأ معاملته لي تتغير، وكان يضربني على طول، وحتى الأكل كان قليل. لحد ما في يوم كان مطر شديد، فاكره كأنه امبارح. طردني من البيت، وما بقيتش عارف أعمل إيه، لحد ما شافني حد من الفلاحين من حبايب أبويا، اسمه الحاج فضل، وكان يعرفني كويس. خدني معاه وتربيت في بيته سنتين. ثم أردف: سنتين من غير ما حد من قريبي يسأل عني..."

تعلمت في السنتين دول يعني إيه واحد مش من دمك ولا حتى من دينك يحبك حب بجد. يدخلني المدرسة، ويجيب لي هدوم، ويأكلني أحسن أكل، ويربيني وسط أولاده، وكل ده عشان كان بيحب أبويا."

ثم أردف موسى، والشوق يملؤه للرجوع إلى تلك الحياة: "وأم بتحضنك بحب، الست بهية، حضن كل دفء، أثره لسه موجود جوايا لحد دلوقتي. أجمل سنتين عشتهم في حياتي، زرعوا فيّ حاجات كتير."

هنا فهم حلمي كيف وصلت أفكار موسى دمتيوه عن الموت بشرف إلى عقله.

ثم أردف موسى دمتيوه قائلاً: "لحد ما عمتي جت من القاهرة عشان تزور عمي يوسف. ما هي مشيت بعد ما دفنت أبويا بيوم. عرفت بالموضوع وجت خدتني من عند الحاج فضل. وقتها فرحت إني هروح القاهرة عشان أكمل تعليمي هناك."

ثم أردف موسى دمتيوه: "عمتي كانت عايشة في المغربلين، وجوزها عنده دكان بقالة. عمتي قالت لي: أنت هتنزل تشتغل في الدكان. عرفت وقتها هي ليه خدتني معاها القاهرة."

كنت حبيت التعليم في السنتين اللي قعدتهم في دمنهور. قلت لها: "أنا عايز أكمل تعليمي."

قالت لي: "وأنا أجيب فلوس أعلّمك منين؟ اشتغل عشان يكون عندنا فلوس نعلمك."

رفضت أشتغل في الدكان، وخد عندك شتيمة وضرب وتقليل من القيمة. ولما زهقوا مني، رموني في ملجأ.

في الملجأ بدأت أفهم يعني إيه وطن يهتم بيك ويراعيك لو مالكش أهل. كنت بطلع كل سنة الأول على الملجأ، لحد ما وصلت لمرحلة لازم أسيب الملجأ فيها.

خرجت، وكان عندي طموح أكمل تعليمي وأدخل مدرسة الحقوق. اشتغلت بالليل ودرست الصبح، وفضلت سنين أنام كل يوم تقريباً من ثلاث لأربع ساعات بس.

لحد ما خلصت مدرسة الحقوق، وجاء الوقت اللي كنت مستنيه من زمان. سافرت دمنهور لعمي عشان أعرفه أنا وصلت فين وطلبته بحقي اللي أخده مني، لكن للأسف اتبلى عليَّ وبلغ نقطة البوليس، وعمل تقرير طبي إني تسببت له في عاهة مستديمة. ضيّع كل مستقبلي وكل اللي وصلت له في لحظة.

من ساعتها عاهدت نفسي إني ما أقبلش بالظلم أبداً وكفرت بالعدالة والقوانين اللي فعلاً بتحمي الأقوياء بس.

كنت في عنبر تاني قبل ده، الكومندة فيه كان بياخد إتاوة من كل اللي فيه، واللي ما يدفعش يشتغل خدام عنده. ما قبلتش أتعرض للظلم تاني، واستعملت نفس أسلوبهم. ضربته في عينه وصفّيتها له كأنني بأكد التهمة الأولى على نفسي.

وبقيت أقرأ كتب القوانين عشان أعرف ثغراتها، بس مش أكتر من كده، وتعلمت حكمة عمري ما أنساها أبداً."

قال حلمي: "حكمة؟... حكمة إيه؟"

قال دمتيوه: "أيوه، حكمة. ماهو مش معقول أعدي بكل الظروف دي وماخرجش بأهم حكمة منها."

قال حلمي في نفسه: "وكأن الباب اختارك عشان تكون معايا في الحكاية يا موسى."

ثم أردف دمتيوه بعد أخذ نفس عميق: "الحكمة هي ياسيدى : يوسف مش زي يوسف زمان... يوسف خان الأمانة... وعيزرا مات عادي... وموسى لسه بيظلموه معاهم."

تعجب حلمي من شخصية موسى دمتيوه الذي يمتلك حكمة لا يمتلكها الكثيرون في عمره.

قال حلمي معتذراً: "أنا آسف إني فكرتك بكل ده."

قال موسى دمتيوه: "لا ولا يهمك، أنا إمتى نسيته؟" ثم أردف: "أنت عجيب قوي يا حلمي، إزاي أول ما عرفتك خليتني أحكيلك كل ده وأفتح قلبي ليك كده."

قال حلمي: "القلوب عند بعضها يا أستاذ موسى."

قال موسى دمتيوه: "أستاذ؟ يسمع من بُقك ربنا."

استأذن حلمي من موسى دمتيوه وانصرف إلى الأستاذ تهامي.

قال تهامي: "إيه؟ كل ده بتتكلموا في إيه؟ مالك بموسى، عايز منه إيه؟"

قال حلمي: "ما تشغلش بالك. المهم ادعي إنك تخرج قريب. أنا محتاجك في حاجات كتير تعملها برة."

قال تهامي: "شكلك بتخطط لشيء يا بطل."

قال حلمي: "لسه حبة حاجات لما ينفع نقول عليها خطة."

مرت ثلاثة أسابيع وحلمي ودمتيوه لم يفترقا فيها. يتحدثون عن أحوال البلاد، والملك، والأحزاب، والاحتلال، وكيفية التخلص منه، وكل ما يخص أحوال الوطن. وكأن موسى دمتيوه وجد ضالته في حلمي في هذا المكان اللعين.

حتى صدر قرار الإفراج عن الأستاذ تهامي لعدم كفاية الأدلة.

ودع تهامي حلمي بالبكاء، لمعرفته أنه لن يراه مجدداً بعد هذا الوقت، موصياً إياه بأنه في انتظار رسالته المتفق عليها.

قال تهامي: "ما تتأخرش عليّ يا حلمي. الأمل باقٍ فيك أنت بس."

قال حلمي: "الأمل في ربنا... ما تنساش في أول زيارة يكون فيها الأكل، والمعلومات اللي طلبتها منك. ومتنساش تجهز اللي مفروض يكون جاهز تاني يوم الحكم عليَّ. وأول ما تخرج من هنا، تروح على المقر السري وتجيب كل الدفاتر اللي مخبيها هناك. بعد كده تبيع المقر وتسيب شغلك عند ديميتري وتغير محل سكنك." ثم أردف: "أشوف وشك بخير."

قال تهامي: "ما تقلقش. كل اللي انت عايزه وأكتر هيكون جاهز." ثم قبل تهامي حلمي وحضنه ورحل.

وانتقل موسى دمتيوه ليجلس بجوار حلمي ليزداد ارتباط أفكارهم ببعض.

وبدأ حلمي بوضع اللمسات الأخيرة في خطة الهروب حتى يبدأ بتنفيذها في القريب العاجل. لم يصارح دمتيوه بفكرة الهروب تلك، في انتظار صدور الحكم في القضيتين المحبوسين على ذمتهما بسجن الاستئناف.

كانت بداية خطة حلمي هو التقرب من مدير السجن، وذلك بالإبلاغ عن كل المخالفات التي يقوم بها السيد حنفي في العنبر، من تجارة وتعاطي ممنوعات، وأسماء العساكر الذين يتم رشوتهم يومياً لمساعدته في تلك المخالفات.

بدأ لمدة شهر يدون في عقله ويراقب ويستنتج من كل الأحداث والأقوال التي تدور في العنبر، حتى يستخدم كل ذلك في خطته.

كان السؤال المحير الذي يدور في عقل حلمى هو كيف سيتم الإيقاع بالسيد حنفى؟ بعد نقل كل المعلومات لمدير السجن، كان السيد حنفى يضع كل الممنوعات في أماكن تجميع القمامة في أركان العنبر. ولو افترضنا أنه تم عمل كبسة في العنبر، سيحصل مدير السجن على الممنوعات، ولكن كيف يحصل على صاحبها؟

ومع ذلك، برزت فكرة في عقل حلمى، وهي أن يأتي بمخدرات أخرى من خارج العنبر عن طريق أحد حراس السجن. لقد ترك تهامى بعض الأموال التي لا بأس بها لحلمى، وقد اختار أحد الحراس الذي كان على خلاف مع حارس آخر يعمل مع السيد حنفى بسبب عدم إعطائه النصيب المقنع له من الرشوة اليومية. هكذا سمع حلمى رجال السيد حنفى يتحدثون عن الموضوع، وكانوا خائفين من أن يوشي هذا الحارس بهم لمدير السجن قبل أن يؤكد أحدهم للآخر عدم قدرة الحارس على فعل ذلك، لارتباطه معهم في تلك الأعمال لفترة طويلة.

ولكن كيف سيتم وضع المخدرات في أغراض السيد حنفى؟ كانت معضلة أخرى. بدأ حلمى بتنفيذ الجزء الأول من الخطة بطلب مقابلة مدير السجن بسبب شيء مهم خاص بقضيته.

في المقابلة، حكى حلمى كل المخالفات التي يقوم بها السيد حنفى، واتفق مع مدير السجن على أن المرة القادمة التي يطلب فيها مقابلته ستكون إشارة لعمل كبسة على العنبر، وستكون المخدرات في حوزة السيد حنفى نفسه، وليس مع أتباعه.

وأثناء عودته من مقابلة مدير السجن، بدأ في الخطوة الثانية، وهي التحدث مع الحارس لكي يجلب له المخدرات، بادعاء أن الصنف الذي يتاجر به السيد حنفى ليس من النوع الجيد. وافق الحارس فورًا ووعده بإحضار ما يريد خلال يومين، ولكن يجب أن تكون الأموال حاضرة، حيث إنه سيحضر أفضل أنواع الحشيش. وظن الحارس أنه بذلك سيضرب تجارة السيد حنفى في مقتل، لظهور نوع حشيش أفضل من حشيش السيد حنفى. وهذا سيكون أفضل انتقام منهم جميعًا، كما توقع حلمى منه، وتم الاتفاق على كيفية توصيل الحشيش إلى حلمى.

أحضر الحارس المطلوب بعد يومين وتظاهر بتفتيش أغراض حلمى في العنبر مع أغراض بعض السجناء الآخرين بحجة المرور الدوري، طبعًا دون تفتيش أغراض السيد حنفى وأتباعه. وضع الحشيش داخل أغراض حلمى في نفس المكان الذي وُجدت فيه الأموال، والذي تركه حلمى في أغراضه، كذلك كان الاتفاق.

وبقيت الخطوة الثالثة، وهي وضع المخدرات في أغراض السيد حنفى وطلب مقابلة مدير السجن. أثناء مراقبة حلمى للسيد حنفى، وجد أنه لا يأكل الخبز بل يقوم بتخزينه لصناعة البوظة منه. فالسيد حنفى خبير في صناعة البوظة من الخبز ويتفنن في صنعها بنفسه كل ليلة بعد نوم معظم المساجين. يترك الخبز ثلاث أيام قبل أن يستخدمه في صناعة البوظة لتكون أكثر حلاوة له ولأتباعه، فهو الوحيد الذي يمتلك بابور لتسخين وصنع الطعام.

وجد حلمى أن أفضل مكان لوضع الحشيش فيه هو شوال الخبز، ولكن كيف يضع حلمى الحشيش في الخبز دون أن يشعر به أحد؟ كان حلمى يدخل الحمام ويتحمل هذه الرائحة الكريهة من فضلات أتباع السيد حنفى، الذين يتعمدون ذلك لنشر الرائحة الكريهة في العنبر. فعمل على تقطيع الحشيش إلى قطع صغيرة ثم وضعها في الخبز الذي حرم نفسه من أكله بفتحه برغيف الخبز، تكاد لا تُرى، ثم يضغط على الخبز ليعلق الحشيش بعجينة الخبز الداخلية. وأصبح الخبز المعمر بالحشيش جاهزًا لمهمته المقدسة ليُرسل السيد حنفى إلى الحبس الانفرادي قبل ترحيله إلى أحد سجون المحروسة المشددة.

في اليوم التالي، أثناء توزيع الطعام، وأثناء توزيع الخبز من رجال السيد حنفى بعد أخذ حلمى حصته اليومية من الخبز (وهي رغيفين)، انتظر حتى تم الانتهاء من توزيع الخبز، ليذهب باقي الخبز إلى السيد حنفى كالعادة. رجع حلمى إلى موزع الخبز مرة أخرى وقال له: "أنت أدتنى أربع ترغفة، ليه؟" ثم أخذ رغيفين آخرين ووضع حلمى الخبز داخل الشوال مرة أخرى ليأخذه موزع الخبز إلى السيد حنفى ويضعه بجواره.

ذهب حلمى بعد ذلك ليبلغ الحارس أنه يريد مقابلة مدير السجن. وبعد منتصف الليل، يدخل مدير السجن إلى العنبر ليفتش في أغراض المساجين جميعًا ومعه عسكري واحد فقط. يتحقق كل ما خطط له حلمى ويتم القبض على السيد حنفى وأعوانه جميعًا وضبط جميع الممنوعات، ويتم حبسهم جميعًا انفراديا قبل ترحيلهم إلى سجون أخرى.

كل هذا ولم يشعر موسى دمتيوه، وهو جالس بجوار حلمى، بما خطط له حلمى وتم تنفيذه بالفعل. أصبح حلمى من رجال مدير السجن الذي يثق به، ولما لا؟ بسبب حلمى، حصل مدير السجن على ترقية استثنائية حيث كشف عن كل شبكة الحراس الفاسدين بالسجن بعد اعتراف السيد حنفى وأعوانه عليهم.

وأثناء تلك الشهور، أصبحت علاقة دمتيوه بحلمى كأنه الأخ الذي لم تلدّه أمه. وعمل حلمى في مكتب مدير السجن لتنظيفه وترتيب الأوراق والدفاتر في بعض الأحيان. وبعد مرور ستة أشهر، تم الحكم في قضية حلمى بخمسة عشرة سنة حبس. وتم صدور الحكم على موسى دمتيوه بثماني سنوات حبس.

ليبدأ حلمى في المرحلة الثانية من خطته، وهي الهروب من السجن، فكان يتوقع صدور هذا الحكم عليه. أرسل تهامى في زيارة الطعام جميع المعلومات المطلوبة عن الرسومات المعمارية وخدمات الصرف الصحي عن السجن برسم كروكي بحجم كف اليد.

فقط توقع حلمى أن خدمات الصرف الصحي للسجن ستكون ضخمة بالشكل الكافي للمرور منها، بسبب أن المبنى من اربع طوابق، وكل العنابر ممتلئة بالمساجين، والسجن في وسط البلد، فغير مسموح بانسداد الصرف من حين لآخر. ولكن كيف، في وسط الرقابة الشديدة في كل أركان السجن، أن يتسلل لشبكة الصرف العمومية الموجودة طبقا للرسومات أسفل غرفة الإعدام؟

لذلك، فكر حلمى بعمل فوضى عارمة في كل أركان السجن.

فوضى يتم التسلل خلالها دون أن يلتفت إليه أحد. غرفة الإعدام هي الغرفة الوحيدة التي لا يوجد عليها حارس، ولكنها تحتوي على باب حديدي مغلق دائمًا، تقع في الدور الأرضي في آخر ممر. يتكون مبنى السجن من خمس طوابق، كل دور به ممر تتوزع منه الغرف والعنابر.

بدأ حلمي يفاتح موسى دمتيوه في عملية الهروب ويطلعه على بعض ما خطط له. جلس حلمي بجوار دمتيوه وتحدث بصوت هامس: "أنا لازم أهرب، أنا مش هتحبس ظلم"، ليرد موسى دمتيوه هامسًا أيضًا: "وأنا كمان، بس إزاي؟" قال حلمي: "أنا مرتب لكل حاجة. جهز نفسك بكرة هنهرب." قال موسى دمتيوه: "طب إزاي؟" قال حلمي: "الحائط له آذان، بكرة هتعرف كل حاجة."

صباح يوم الهروب من السجن، تجهز حلمي للذهاب إلى مكتب مدير السجن، واقترب من موسى دمتيوه متحدثًا إليه هامسًا في أذنه: "أول ما تلاقي العنابر هاجيت، خد الشنطة اللي فيها هدوم نظيفة دي وانزل عند غرفة الإعدام." ثم خرج حلمي من العنبر وذهب إلى غرفة مدير السجن، حيث يعلم كل شيء فيها، وكل ملف أين يوضع، وكيف تتم إجراءات الإفراج بعد جلسات الأحكام، وأين يوجد مفتاح غرفة الإعدام، وهو مفتاح غير مهم بالنسبة لجميع ما في السجن. فمن يريد أن يدخل إلى هذه الغرفة التي تصلك إلى آخرتك، فهو دائمًا يوضع في درج مكتب مدير السجن، الذي من السهل فتحه.

عندما وصل حلمي إلى غرفة مدير السجن، بدأ في تنظيفها قبل وصوله. يعلم حلمي أن ثاني يوم من صدور الأحكام، يمر مدير السجن على المحكمة ليأخذ نسخة من قرارات الأحكام، فمن المساجين من يُصدر له إفراج ومنهم من يُصدر عليه حكم، ويقوم السجن بترحيله إلى سجن آخر إذا كان الحكم عليه لا يسمح بوجوده في السجن.

جاء مدير السجن حاملًا ظرفين، واحد به أسماء المرحلين والآخر يحمل أسماء المفرج عنهم. وضعهم على المكتب قائلًا لحلمي: "صباح الخير يا حلمي." قال حلمي: "صباح الورد يا فندم." قال مدير السجن: "متقلقش يا حلمي، أنا هوصي عليك السجن اللي أنت رايح له، وبرضه هتقضي حكمك في مكتب مدير السجن هناك." قال حلمي: "تسلم يا فندم، كتر خيرك."

دخل مدير السجن الحمام، حيث يفعل ذلك دائمًا بعد دخول مكتبه مباشرة، فهو يعاني من مرض البروستاتا الذي يجبره على فعل ذلك. بدأ حلمي في تنفيذ خطته، وفتح الظرفين، وقام بتبديل الأوراق بينهما. خرج مدير السجن من الحمام واستدعى ضابطًا يخدم معه، وسلمه الأوراق ليبدأ بالإجراءات.

تجهز مدير السجن لعمل مرور يستغرق حوالي ساعة، وهو مرور يومي. استخدم حلمي فتحة الورق الموجودة على المكتب لفتح الدرج وأخذ مفاتيح غرفة الإعدام، وهو يعلم أنه لا يوجد أحكام إعدام اليوم، فالراية السوداء بالسجن منكسة، فهناك راية سوداء بالسجن تُرفع لمعرفة إن كان هناك حكم إعدام في ذلك اليوم أم لا.

بعد ساعة ونصف تقريبًا، بدأ هيجان في جميع العنابر بسبب أن الأسماء المفرج عنها لم تُنادى، وتم نداء أشخاص آخرين. وبدأ الدفع في جميع العنابر مما أدى إلى خروج السجناء منها، وبدأت صفارات إنذار الهروب تضوي في جميع أركان السجن. تحرك موسى دمتيوه حسب الاتفاق إلى غرفة الإعدام، وكان يقفز على السلم بسرعة البرق، وكان حلمي في انتظاره بالقرب من غرفة الإعدام. بدأت إجراءات القضاء على هيجان السجناء طبقًا للإجراءات المتبعة بغلق الأبواب الخارجية وفتح السلاحليك وتجهيز كل قوة السجن للقضاء على الهيجان والتمرد، واستدعاء قوة خارجية للدعم السريع للقوة الأساسية بالسجن.

وصل موسى دمتيوه إلى غرفة الإعدام، وقام حلمي بفتح الغرفة سريعًا، وأدلف فيها هو وموسى دمتيوه، وأغلقها خلفهم. ثم ذهبوا إلى الغطاء الخاص بغرفة المجاري الرئيسية للسجن ليجدوا عليها قفلًا آخر. بحث حلمي بمفاتيح غرفة الإعدام ووجد المفتاح الخاص بها. فتح حلمي غطاء المجاري ونزل هو الأول، ثم أتبعه دمتيوه بالنزول سريعًا وأغلق الغطاء خلفهم. كانت الرائحة نتنة، ولكن لم تفرق كثيرًا عن رائحة حمام العنبر، فقد اعتادوا عليها. تحرك حلمي طبقًا للرسومات التي يملكها، واتبعه موسى دمتيوه.

تحركوا خلال مجاري الصرف لأكثر من مائة متر قبل أن يظهر سلم الصعود المراد استخدامه طبقًا للرسومات. صعد حلمي، ثم اتبعه موسى دمتيوه، وبدأ حلمي يرفع الغطاء بحرص شديد ليجد نفسه في منتصف شارع عمومي. صعدوا إلى الشارع وكأنهم عمال بلدية كانوا يقومون بتطهير الصرف.

ذهبوا إلى أحد الحمامات العمومية للاستحمام وتغيير الملابس سريعًا، ثم أوقفوا سيارة أجرة واستقلوها. وموسى دمتيوه لا يصدق ولا يعلم ماذا حدث وأين يذهب. وصلت سيارة الأجرة إلى أحد شوارع الظاهر، أوقف حلمي السيارة ونزل منها هو وموسى دمتيوه. ثم تابع حلمي وموسى دمتيوه السير حتى وصلا إلى منطقة غمرة. دخل حلمي إلى أحد البيوت وصعد إلى الدور الثالث ووقف أمام باب شقة. ثم رفع دوسة أمام الباب، ووجد مفتاح باب الشقة، فتح حلمي الباب ودخل، وأتبعه موسى دمتيوه، وقد بدت عليهما كل علامات التعب الشديد.

جلسوا على كنبة موجودة في صالة الشقة، وأنفاسهم تتسارع من التعب. ليبدأ حلمي الحديث قائلًا: "حمد لله على السلامة يا موسى." لينظر إليه موسى دمتيوه بتعجب قائلًا: "أنت مين؟... أنت مين؟" ثم أردف: "أنت مين يا حلمي؟ أنا افتكرت أني عرفت عنك كل حاجة في ست شهور اللي قعدناهم معًا في سجن الاستئناف، لكن اللي حصل النهاردة عرفني أني معرفش عنك أي حاجة." ليرد عليه حلمي مبتسمًا: "إيه اللي عايز تعرفه عني؟ وأنا أقول لك. أنا، رغم المدة القصيرة اللي عشت معاك فيها في السجن، لكن بعتبرك زي أخويا اللي ما جبتوش أمي ولا أبويا."

موسى دمتيوه: "احكي لي اللي حصل النهاردة، حصل إزاي، وكنت عارف أن السجن هيحصل فيه الهيجان ده إزاي، والشقة دي مين اللي حضرها وجبها لينا؟" بدأ حلمي يحكي لموسى دمتيوه كل الخطط التي وضعها في السجن، وطريقة حصوله على معلومات من تهامي عن السجن.

وأتفاقه مع تهامي لتجهيز الشقة وكيف خطط لإفتعال هياج داخل السجن وكيف اختار الموعد المناسب لذلك.

هدأت حيرة موسى دمتيوه ثم قال: "طب هنعمل إيه دلوقتي؟"

قال حلمي: "لازم ناخد حقنا من اللي ظلمونا."

قال موسى دمتيوه: "عندك حق، طب إزاي؟" ثم أضاف: "أكيد الدماغ اللي فكرت في كل الأفكار اللي فاتت دي عندها خطة."

قال حلمي مبتسمًا: "يعني لسه ما بقتش خطة."

قال موسى دمتيوه: "طب مش هتشركني فيها ولا هتقول لي برضه الحيطان لها آذان؟"

قال حلمي مبتسمًا: "لا، لا، هشاركك طبعًا، يشركى في الهروب الكبير."

ثم أضاف: "هنبدأ بعمك يوسف." ثم صمت حلمي لحظات ليبدأ موسى دمتيوه بالحديث: "كمل."

قال حلمي: "لو واحد راح لعمك وقال له إنه من المنظمة الصهيونية وعايز يعمل معه اتفاق، عمك هيوافق."

قال موسى دمتيوه: "أكيد لو في مصلحة هيوافق."

قال حلمي: "طب لو فعلاً في مصلحة، وهو أتأكد من كده، يرضى يديهم حجج الأراضي الزراعية بتاعته."

قال موسى دمتيوه: "على حسب ثقته في اللي هيديله الحجج، وعلى حسب حجم المصلحة."

قال حلمي: "برافو عليك، يبقى لازم نتأكد إنه هيثق فيهم، ولازم المصلحة تكون كبيرة."

قال موسى دمتيوه: "أنا لحد دلوقتي لسه مفهمتش حاجة."

قال حلمي: "مأ أنا قلت لك، لسه الخطة ما كملتش." ثم أضاف حلمي: "قولي، صحيح، إيه رأيك في المنظمات والحركات الصهيونية؟"

قال موسى دمتيوه مبتسمًا: "أهي طريقة جديدة عشان أغنياء اليهود يتحكموا في فقراء اليهود اللي بيشتغلوا عندهم."

قال حلمي: "لا، أنا مش فاهم، ممكن توضح؟"

قال موسى دمتيوه: "زمان كانت المملكة المصرية لما تتعامل مع اليهود، كانت بتبقى عايزة تتعامل مع كبير لكل مجموعة منهم. واللي ما يبقاش له كبير كان يضيع في الزحام، فكل واحد يهودي كان بيدور على غني يشتغل عنده ويحميه، وكان الأغنياء فاهمين ده كويس ويستغلونه لمصلحتهم، يعني يشغلوهم كتير بأجرة صغيرة.

بعد ما المملكة المصرية أصبح فيها نظام وقانون يحمي أي حد من أي حاجة، وبدأ تمرد فقراء اليهود على الأغنياء: 'أما تديني حقي أو أسيبلك الشغل وأمشي.'

لحد ما جاء موضوع المنظمات الصهيونية، لقوا فيها أغنياء اليهود فكرة الانتماء والقومية اليهودية، وبدأوا يضحكوا على فقراء اليهود تاني ويستغلوهم بس بطريقة جديدة."

وكان حلمي أثناء سماعه رأي موسى دمتيوه في المنظمات الصهيونية يبدو عليه الدهشة والإعجاب من التحليل المتقن لموسى دمتيوه، والمناسب إلى حد بعيد للشخصية اليهودية.

ولم لا، فأهل مكة أدرى بشعابها.

بعد انتهاء موسى دمتيوه من حديثه، قال حلمي: "يعني مش هتنضم ليهم في يوم من الأيام؟"

قال موسى دمتيوه: "اللي اتظلم في حياته زي يكره أي ظالم، ودول ناس أساسهم الظلم، سواء فقراء اليهود أو الفلسطينيين اللي عايزين ياخدوا أرضهم. وفي الآخر يستغلوا اليهود الفقراء عشان يحاربوا الفلسطينيين، وأنا مش هسمح لنفسي أكون مستغل أو أكون مستغلاً."

قال حلمي: "طيب، إحنا محتاجين نغير شكلنا شوية. أنت هتربي شنبك وشعرك، وأنا كده سيب شنبى ودقني هظبطهم بس."

ثم أضاف: "ننام دلوقتي ونريح شوية، وأنا على العصر عندي مشوار وهجيب أكل معايا."

ذهب موسى دمتيوه إلى النوم فقد أرهق من المشي في المجاري.

وقد وجبت صلاة الظهر منذ ساعة وأكثر، توضأ حلمي وقام بالصلاة، وذهب أيضًا إلى النوم.

قبل أذان العصر بساعة، استيقظ حلمي ليجهز نفسه. وقف أمام المرآة في دورة المياه، وقام بتهذيب لحيته وشاربه، وارتدى نظارة طبية كانت مجهزة بالشقة، ثم كتب كتابًا ليذهب إلى مسجد الحسين في أول موعد طبقًا للإتفاق مع تهامي.

وصل حلمي أمام المسجد يترقب وصول تهامي من بعيد حتى ظهر، وقام بخلع حذائه ودخل للصلاة. انتظر حلمي حتى إقامة الصلاة، حتى بدأ خادم المسجد بالصلاة بجوار الأحذية خوفًا من سرقتها. اقترب حلمي من باب الدخول ووضع الورقة داخل حذاء تهامي، فعل ذلك أثناء خلع حذائه، ثم دخل للصلاة.

بعد انتهاء الصلاة، كان حلمي أول الخارجين، وانتظر بعيدًا ليؤكد من وصول الرسالة لتهامي.

خرج تهامي ووجهه مشرق فرحًا بعد أن رأى الورقة في الحذاء. أخذ الورقة ووضعها في جيبه وانصرف.

لم ينتظر تهامي حتى عودته إلى بيته وفتح الورقة ليقرأها بعد ركوب سيارته.

كتب حلمي في الورقة: "وحشتني يا رجل يا طيب. الحمد لله كل خطتي نجحت، وعرفت أهرب من السجن، وكمان هربت معايا موسى دمتيوه عشان هيساعدني في الموضوع بتاعنا. ثم أضاف: محتاج الدفاتر ضروري ومحتاج فلوس كمان.

الدفاتر والفلوس هتحطهم بكرة في شنطة الأوتومبيل في صندوق خشب. ووقت صلاة العصر تخش تصلي في الحسين وتسيب باب شنطة الأوتومبيل متوارب، وأنا هخد الدفاتر وهقفلها.

ومحتاجك تعمل حساب في بنك باركليز وتطلب دفتر شيكات منهم، ومحتاج معلومات عن عم موسى دمتيوه اسمه (يوسف دمتيوه).

محتاج المعلومات دي على يوم الخميس الجاي.

مع السلامة."

تحرك تهامي بالسيارة ليبدأ في تدبير الفلوس وتجهيز الدفاتر.

وصل حلمي إلى الشقة ومعه بعض الطعام، فتح الشقة ودخل ليجد موسى غارقًا في نومه.

أيقظ حلمي بصوت هادئ قائلاً: "موسى، اصحى يا موسى عشان تأكل لقمة."

استيقظ موسى وذهب إلى دورة المياه، ثم جلسوا على طاولة بالصالة ليبدأوا في الأكل.

قال حلمي: "نمت كويس يا موسى؟"

قال موسى دمتيوه: "ياه، داني بقالى كتير ما نمتش كده."

قال حلمي: "طب الحمد لله." ثم أضاف: "إن شاء الله هاروح دمنهور لعمك قريب."

قال موسى دمتيوه: "الخطة كملت في دماغك."

قال حلمى: "حاجة زي كده."

قال موسى دمتيوه: "طب، دوري إيه فيها؟"

قال حلمى: "لا، أنت مالكش دور فيها خالص. ثم أضاف: أفضل حاجة تعملها دلوقتي إنك تفضل قاعد في الشقة، عشان مش صح نظهر مع بعض دلوقتى ."

في عصر اليوم التالي، أحضر حلمى الدفاتر وبدأ ينظر فيها مرة أخرى، لكنه لم يرَ شيئًا غريبًا. فتساءل موسى دمتيوه عنها قائلاً: "إيه الدفاتر دي يا حلمى؟"

قال حلمى: "دي دفاتر هنستخدمها عشان نعرف نرجع حقك من عمك. ثم أضاف: دفاتر فيها كل أسماء اليهود اللي بيدفعوا اشتراكات للمنظمة الصهيونية في الإسكندرية والبحيرة. أنت متعرفش أنا دفعت فيهم قد إيه، عشان أعرف أجيبهم تمن غالي قوي."

قال موسى دمتيوه، ناظرًا إلى الدفاتر: "كل دول بيدفعوا، دول يجو عشرة آلاف يهودي."

قال حلمى: "آه، فعلاً، وعمك بيدفع معهم."

قال موسى دمتيوه: "آه، طبعًا، الطيور تقع على أشكالها."

وفي عصر الخميس التالي، أحضر تهامى المعلومات المطلوبة عن يوسف دمتيوه، ووضع حلمى طلبات جديدة في الحذاء. طلب حلمى من تهامى توقيع شيك منه بعشرين ألف جنيه، وهو مبلغ ضخم أكيد لا يملكه تهامى، كما طلب منه ترتيب مقابلة مع أحد النشالين المحترفين.

كانت المعلومات عن يوسف دمتيوه أنه أصبح يملك لا يقل عن مائتين فدان، ويملك أيضًا عقارات بدمنهور، وأتومبيل برقم كذا.

وفي عصر الاثنين، أحضر حلمى الشيك المطلوب، وذهب لمقابلة النشال المحترف بمقهى بالموسكي بالليل، وقام بالاتفاق معه على ما يريده.

في صباح اليوم التالي، تجهز حلمى للذهاب إلى دمنهور وأخذ أحد الدفاتر معه.

قال موسى دمتيوه لحلمى: "أنت متأكد إنك مش محتاجني معك؟"

قال حلمى: "وجودك معايا في دمنهور أكيد هيضرني، مش هيفيدني. ثم أضاف: متستعجلش، دورك جاي."

استقل حلمى القطار إلى دمنهور، ووصل عصرًا، وذهب إلى العنوان الذي أخذه من موسى دمتيوه، ووقف أمام باب منزل يوسف دمتيوه ليأخذ أنفاسه الأخيرة قبل طرق الباب.

فتح الباب إحدى بنات يوسف، ليسأل حلمى عن والدها. أدخلته إلى المكان المخصص لاستقبال الضيوف، ثم ذهبت لإبلاغ والدها.

دخل يوسف دمتيوه على حلمى وألقى التحية: "مساء الخير، حضرتك مين؟"

قال حلمى: "أنا داود نصحي، مندوب من المنظمة الصهيونية."

يوسف دمتيوه يتصنع الابتسامة: "اتفضل، اتفضل، أهلا وسهلا."

ثم أضاف يوسف: "أقدر أساعد حضرتك بإيه؟ أوامرني."

يوسف دمتيوه رجل تعدى عمره الستين، يرتدي نظارة طبية، ويرتدي بنطلون وقميص، وطربوش على رأسه.

قال حلمى: "لا، أبدًا، أنا جاي أعرض عليك فرصة عمرك."

قال يوسف دمتيوه متحمسًا: "فرصة عمري؟ قول، أنا سامعك."

ثم فتح حلمى الدفتر على الصفحة الموجودة فيها اسم يوسف دمتيوه، ثم بدأ بالتحدث: "الدفتر ده فيه أسماء كل اليهود المشتركين بالمنظمة، وأنا المفروض أختار واحد منهم أعرض عليه فرصة العمر. أنت مش أقل واحد بتتدفع، بس برضو مش أكتر واحد. بس الموضوع مش بيتقيم بقيمة الاشتراك، في حاجات تانية كتير."

أثناء حديث حلمى، كان يوسف دمتيوه يتفحص الدفتر بعينيه ويقرأ بعض الأسماء التي يعرف أنها مشتركه بالمنظمة.

بعد انتهاء حلمى من التظاهر بمراجعة بيانات يوسف دمتيوه بالدفتر، قام بإغلاقه.

ثم استرسل حلمى في الحديث قائلاً: "أنت عارف إن الناس اللي بيشتغلوا معانا بيوصلوا لفين؟"

قال يوسف دمتيوه: "طبعًا، طبعًا، وأنا ليه الشرف أن أكون معاكم."

قال حلمى: "أول جزء من العرض هو إنك تكون المندوب بتاعنا الفترة اللي جاية في دمنهور، هتكون مسؤول عن جمع الاشتراكات وتجهيز اجتماعات ليهود البحيرة لتعريفهم بأهمية الوطن والقومية اليهودية."

ثم أضاف حلمى: "الجزء الثاني هو إنك تكون مندوب قطاوى باشا في جمع القطن في كل البحيرة."

تهلل وجه يوسف دمتيوه عند سماع الجزء الثاني من العرض.

قال حلمى: "ممكن أسمع رأيك؟"

يوسف دمتيوه: "طبعًا، أنا تحت أمركم، وأمر الوطن اليهودي."

قال حلمى: **"بس في شوية شروط لازم تسمعها." ثم أضاف حلمى: "أولًا: السرية الكاملة لأي معلومات تعرفها مننا أو تنقلها لنا. ثانيًا: الطاعة الكاملة في تنفيذ كل الأوامر. ثالثًا: لازم تديني بعض الضمانات عشان نضمن ولاءك لنا."

قال يوسف دمتيوه: "ضمانات... ضمانات زي إيه؟"

قال حلمى: "دي شروط إنك تكون مندوب لنا، وأنت أكيد هتحتاج فلوس عشان يكون عندك سيولة لجمع محصول القطن. والفلوس إحنا هنديهالك، فلازم يكون عندنا شوية ضمانات منك."

قال يوسف دمتيوه: "قول الضمانات اللي حضرتك عايزها، وأنا تحت أمرك."

أخرج حلمى ورقة من داخل الدفتر وقال: "توقع على ورقة رهن بنص أرضك، وتسلم لي الحجج بتاعتها."

قال يوسف دمتيوه: "ميت فدان مرة واحدة، ده صعب جدًا."

تظاهر حلمى بتغير ملامحه إلى الغضب: "خلاص، العرض انتهى. أكيد في ناس أسماءها في الدفتر هتوافق على العرض ده."

وهم حلمى للرحيل ليطلب منه يوسف دمتيوه الجلوس مرة أخرى لمحاولة التفاوض معه.

قال يوسف دمتيوه: "طب، إيه اللي يضمن لي أرضي؟ أنتو موجودين النهاردة في المنظمة، ممكن متبقوش موجودين بكرة."

قال حلمى بغضب: "أولًا، إحنا مش شغالين ججهجوني. في نظام ودفاتر متسجل فيها كل حاجة. يعني لو إحنا مش موجودين، الدفاتر موجودة. ثانيًا، أنت هتاخد شيك مني لبنك باركليز بعشرين ألف جنيه دلوقتي، عشان تبدأ تجهز نفسك لموسم القطن."

قال يوسف دمتيوه: "عشرين ألف جنيه؟ مش تقول كده من الأول؟ طبعًا موافق".

قال حلمي: "طب اتفضل يا أستاذ، امضي على الرهنية وهات حجج الأرض".

ثم أظهر حلمي الشيك ووضعه أمام يوسف. بدأ يوسف بتفحص الشيك قائلًا: "مين تهامي رفعت كمال اللي توقيعه على الشيك ده؟".

قال حلمي: "ده نفس الراجل اللي هتوقع على الرهنية له، وهو اللي هيكون المرسل بينا بعد كده".

وقع يوسف دمتيوه على ورق الرهنية ولم يشك لحظة في حلمي بعد أن فتح دفاتر المنظمة المدون بها كل الأموال والاشتراكات التي كان يدفعها يوسف دمتيوه.

أحضر يوسف حجج الأرض وأعطاها لحلمي، وهمّ حلمي بالمغادرة، ليلتفت مرة أخرى إلى يوسف قائلًا: "اوعى كل اللي اتفقنا عليه دلوقتي حد يعرفه، ثم أردف: لو اتعرف ممكن ناس تخش فيه وتبوظ الموضوع لمصلحتهم، والمندوب بتعنا هيتواصل معاك قريب عشان يفهمك الترتيبات هتكون إزاي".

قال يوسف دمتيوه: "طبعًا، أكيد أنا عارف ده كويس".

انصرف حلمي إلى محطة القطار عائدًا إلى القاهرة.

عاد حلمي في فجر اليوم الثاني من ذهابه إلى دمنهور، ودخل الشقة وكان في انتظاره موسى دمتيوه الذي لم ينم من ليلة البارحة.

قال موسى دمتيوه: "إيه الأخبار؟ طمني، عملت إيه؟".

قال حلمي: "لحظة بس، أخد نفسي".

جلس حلمي منهكًا من تعب السفر، وأحضر موسى دمتيوه له الماء، وشرب حلمي ثم أخرج بعض المستندات من الدفتر وقال: "امسك يا عم حجج الأرض ورهنيتهم".

بدأ موسى دمتيوه يتفحص الورق قائلًا: "الرهنية باسم تهامي".

قال حلمي مبتسمًا: "أمال هتكون باسمك أنت ولا أنا الهربان من السجن؟".

قال موسى دمتيوه: "عندك حق، ثم أردف: الخطوة الثانية هتعملها إمتى؟".

قال حلمي: "لا، الخطوة الثانية هي أهم خطوة، نجيب شيك تهامي من عمك، ثم أردف: يدوب أنام حبة وأقوم أقولك هنعمل إيه النهاردة".

استيقظ حلمي عند الظهر وبدأ بتجهيز نفسه ثم أخبر موسى دمتيوه بتجهيز نفسه للنزول.

ذهب حلمي إلى النشال الذي قام بالاتفاق معه على سرقة محفظة يوسف دمتيوه ليخبره أنه يجب أن يداوم هو وأعوانه بالمهنة أمام بنك باركليز لحين ظهور الرجل المراد، وذلك لمدة أسبوع. توقع حلمي أن يأتي يوسف دمتيوه خلاله لصرف الشيك، وكان حلمي وموسى دمتيوه يداومون مع بعضهم بصحبة النشال أمام البنك.

مر أول يوم دون ظهور يوسف أثناء عمل البنك، ثم أتى في اليوم الثاني ليبدأ النشال في تنفيذ الخطة الموضوعة له من قبل حلمي.

وكانت الخطة كالتالي: يتظاهر أعوان النشال بسرقة أحد المارة بالشارع ليضع يوسف دمتيوه يده على مكان المحفظة، ثم يجرى النشال المزيف في اتجاه يوسف دمتيوه ووراءه أعوان النشال الحقيقي ليصطدموا بيوسف دمتيوه ويحصل النشال على المحفظة.

تمت المهمة بنجاح وتحسس يوسف دمتيوه على ملابسه ولم يجد المحفظة ولا الشيك، ليعود إلى دمنهور ممنيًا نفسه بتدبير أموال جمع محصول القطن بأي طريقة أو أن يحكي ما حدث لمندوب المنظمة.

مرت شهر على سرقة محفظة يوسف دمتيوه ولم يظهر حتى الآن مندوب المنظمة الذي سوف يرتب معه كيفية جمع محصول القطن لصالح القطاوي باشا.

اضطر يوسف إلى بيع بعض عقاراته لتجهيز جزء من المبلغ لجميع المحصول.

ليبدأ حلمي المرحلة الثالثة من الخطة، التي وضعت تفاصيلها بسيارة تهامي، هي والرهنية وحجج الأرض، ليبدأ في تنفيذها.

سافر تهامي إلى دمنهور وذهب إلى مركز بوليس دمنهور ليقدم شكوى بحق يوسف دمتيوه لعدم رد مبلغ قد استلفه منه مقابل رهن جزء من أرضه له.

أحضر مأمور مركز البوليس شيخ البلد لدمنهور ليستدل على عنوان يوسف دمتيوه، ليؤكد شيخ البلد أن الخواجة يوسف دمتيوه قد باع مؤخرًا كل عقاراته بدمنهور لسبب غير معلوم، وقد أشيع بين الناس أنه سوف يهاجر إلى المغرب.

وجلس الجميع ينتظر يوسف دمتيوه للحضور لحل المشكلة أو الحبس.

دخل يوسف ينظر إلى أوجه الجميع ليحاول معرفة سبب حضوره بمركز البوليس.

ليبدأ مأمور مركز البوليس بالكلام: "يا خواجة دمتيوه، أنت تعرف الراجل اللي قاعد قدامك ده؟".

ليرد يوسف دمتيوه: "لا، ماحصليش الشرف".

ليتكلم تهامي: "أنا تهامي رفعت كمال، عرفتني دلوقتي؟".

ليبدو على يوسف الارتباك والتوتر: "أيوة، أيوة طبعًا أعرفه. أنا آسف، باين النظارة عايزة تتغير. لو في مشكلة مع الأستاذ تهامي، يا سيادة المأمور، أنا تحت أمرك".

قال المأمور: "لا، مش هو اللي عنده مشكلة، المشكلة هتكون معاك أنت".

قال يوسف دمتيوه: "مشكلة عندي؟ ثم أردف: ممكن حضرتك توضح، عشان مش فاهم".

قال المأمور: "الأستاذ تهامي جاي يطالب بحقه".

قال يوسف دمتيوه: "حق إيه؟ مش فاهم".

قال المأمور: "الفلوس اللي أنت استلفتها منه، والمفروض ميعاد ردها كان إمبارح".

قال يوسف دمتيوه غاضبًا: "فلوس إيه يا فندم؟ ده كان اتفاق عشان...".

ثم صمت يوسف متذكرًا ماذا لو ذكر اسم المنظمة الصهيونية في هذا الموضوع، وكيف سيكون رد فعلهم عليه.

ثم أردف يوسف دمتيوه قائلًا: "ممكن يا سيادة المأمور تسيبني أنا وأستاذ تهامي نتفاهم على انفراد؟".

قال المأمور: "أوي أوي، لو ده ممكن يحل الموضوع مفيش مانع. يلا يا شيخ البلد، تعالى، في ورق عند النيابة لازم نراجعه مع بعض".

بعد خروج المأمور وشيخ البلد، بدأ يوسف بالحديث: "هو ده كان اتفاقنا؟ إزاي تعملوا كده؟".

قال تهامي: "اتفاق إيه وعملنا إيه؟ أنا مش فاهم أنت بتقول إيه".

قال يوسف: "طب ممكن تفهمني ورق الرهنية والحجج وصلت لك إزاي؟"

قال تهامي: "يسلام، سهلة خالص. ابن خوك جابهم لي واستلف مني خمسة آلاف جنيه ليك عشان أنت محتاجهم ضروري."

يوسف، وقد أثر الخبر على وجهه، وبدأ العرق يتصبب منه: "ابن خويا؟"

قال تهامي: "أيوه، ابن خوك موسى دمتيوه جالي من أكتر من شهر، واتفق معايا إنه يجيب لي حجج أرض تخصك ورهنية باسمي مقابل أن أديله الفلوس."

قال يوسف غاضبًا: "ابن الكلب الحرامي النصاب ده ضحك عليك!"

قال تهامي ضاحكًا: "ضحك عليه أنا ولا ضحك عليك أنت؟"

ثم أضاف تهامي: "أنا معايا رهنية بتوقيعك وحجج الأرض كمان، وتقول لي ضحك عليه!"

قال يوسف: "طب ممكن نتفق أو نتفاوض يعني في المبلغ؟"

قال تهامي: "مفيش غير الاتفاق اللي معايا في الورقة دي. يا تدفع الفلوس، يا تسلم لي الأرض أتصرف فيها، أو هستلم الأرض بقوة القانون."

قال يوسف دمتيوه، وخيبة الأمل تعلو وجهه: "مفيش مفر، لازم أدفع لك الفلوس."

تحدث تهامي مع العسكري ليستدعي المأمور، وجاء المأمور وتم الاتفاق على الذهاب إلى بيت يوسف دمتيوه لحضور تسليم المبلغ إلى الأستاذ تهامي.

أخذ المبلغ تهامي وتحرك إلى محطة القطار ليصل صباح اليوم التالي، ليذهب لصلاة العصر بنفس اليوم بعد أخذ قسط من النوم، ويقوم بتسليم المبلغ إلى حلمي بالطريقة المعتادة عن طريق السيارة، ومعه مسدس وبعض الذخيرة التي طلبها منه حلمي بالمرة السابقة.

رجع حلمي إلى الشقة بالمبلغ، وقام بتسليمه إلى موسى دمتيوه قائلاً: "حقك يا موسى."

قال موسى دمتيوه، وعينه لا تصدق ما تراه: "حقّي أنا! كنت فقط الأمل في رجوعه."

أمسك موسى بالمبلغ ثم أضاف: "جميلك يا حلمي في رقبتي."

قال حلمي: "أنا قلت لك قبل كده، أنت زي أخويا يعني مفيش بينا مجاملات."

قال موسى دمتيوه متحمسًا: "زي ما جبت لي حقّي وانتقمت من اللي ظلموني، لازم أجبلك حقك وننتقم لك من الظالمين."

قال حلمي: "من غير ما تعرف من اللي ظلموني."

قال موسى دمتيوه: "أنا عارف اللي قتلوا حبيبتك هم اللي ظلموك."

قال حلمي: "بس أنت متعرفش من اللي قتل حبيبتي."

قال موسى: "مش مهم أعرف، المهم أخذ حقك منهم."

قال حلمي مترقبًا رد فعل موسى دمتيوه: "أنا اللي قتل حبيبتي الصهاينة."

قال موسى دمتيوه: "الصهاينة هى حبيبتك؟ كانت يهودية؟"

قال حلمي: "لا، مكنتش يهودية، كانت بتحب بلدها."

قال موسى دمتيوه: "بس أنت قلت لي إن حبيبتك اللي قتلها أهلها."

قال حلمي: "ما كانش ينفع أقول لك كل حاجة من الأول."

قال موسى دمتيوه: "طب هتقول لي دلوقتي ولا ...."

قال حلمي: "هقول لك."

وبدأ حلمي يحكي عن جماعته الوطنية ومراقبة أعضاء المنظمة الصهيونية حتى قتلهم أصدقاؤه بالنضال الوطني.

وبعد انتهاء حديث حلمي، بدأ موسى بالحديث: "أنا ما قولتلكش احكي عشان أقرر أنا معاك ولا لأ.. لأنّي أكيد أنا معاك في كل الأحوال أنا قولتلك احكي عشان أفهم كل حاجة.

ولازم تعرف أني بكره الظلم في كل الحالات، ونفسي أنتقم من كل الظالمين."

قال حلمي: "يبقى نبدأ ونتوكل على الله."

قال موسى دمتيوه: "نتوكل على الله."

حلمي لا يريد أن يقتل أعضاء المنظمة فقط، بل يريد أن يهدم كل أعمالهم وتنظيمهم قبل أن يتخلص منهم، حتى يكون من الصعب إعادة تنظيم المنظمة مرة أخرى.

أحضر حلمي دفاتر المنظمة مرة أخرى ليحاول معرفة أي شيء جديد.

بدأ يتفحص حلمي وموسى دمتيوه الدفاتر، وقد أحضر حلمي زجاجة نشادر لاستخدامها لكشف الحبر السري.

وبدأ حلمي بإعادة كشف الأسماء مرة أخرى، لعله يجد جديدًا، وأثناء وضع القطن بزجاجة النشادر، تقع نقطة منها على الغلاف الداخلي لأحد الدفاتر، لاحظ موسى شيئًا وقال: "إيه ده في كلام على الغلاف؟"

ليبدأ حلمي في كشف الكلمات من الجانب الداخلي على الغلاف ليجد جميع الكلمات بالعبرية.

ليبدأ موسى دمتيوه بالقراءة والترجمة، فهو على دراية باللغة العبرية.

العنوان أعلى الغلاف: "مفاتيح علياه بيت."

موسى دمتيوه، وهو يظهر على وجهه المفاجأة: "علياه بيت!"

قال حلمي: "إيه علياه بيت ده يا موسى؟"

قال موسى دمتيوه: "دي جماعة تابعة (الهاجاناه) شغلها التجسس وتهريب السلاح وتهريب الأموال، وتهريب كمان اليهود اللي بيضحكوا عليهم لفلسطين."

قال حلمي: "كده عرفت سبب قتلهم نرجس والصفتى وأكرم."

ثم أضاف حلمي: "كمل يا موسى ترجمة."

قال موسى دمتيوه: "دي أسماء يهود، غالبًا عايشين في مصر، بس قدام كل واحد فيهم وظيفة."

قال حلمي: "وظيفة إيه؟"

قال موسى دمتيوه: "مسؤول مخازن سلاح القلعة، ومسؤول مصنع بارود البدرشين، ومسؤول مخزن سلاح إسماعيلية، ومسؤول مخزن سلاح حلوان."

قال حلمي: "إزاي يعني؟ صعب أن يكون كل اليهود دول شغالين في المناصب دي."

قال موسى دمتيوه: "عندك حق، أنا مش فاهم."

قال حلمي: "تقريبًا أنا فهمت، أنت قلت في الأول: مفاتيح علياه بيت. ثم أضاف: ممكن تقولي اسم من الأسماء دي؟"

قال موسى دمتيوه: "ممكن ناخد الاسم بتاع مسئول مخزن سلاح القلعة (جوزيف أيزاك)".

وبدأ حلمى يحضر الدفاتر المنقولة والمترجمة ليجد أمام اسم (جوزيف أيزاك) مبالغ ضخمة صعبة، أن تكون اشتراكات وعلامة الدولار.

قال حلمى: "زى ما توقعت، دى استحالة تكون مبالغ اشتراكات، دى رشوة للمسئولين، عشان تهريب السلاح لهم".

الدفاتر والأسماء منها مفاتيح ومنها أسماء حقيقية، عشان لو اتكشفت يعتقد اللى اكتشفها أنه حصل على معلومات هامة، وهي لا معلومات هامة ولا حاجة. والمعلومات الهامة فعلاً في مفاتيح الدفاتر. ولولا أنهم قتلوا اللى اقتلوهم، عمرنا ما كنا هنشك ولا هنوصل لحاجة.

ثم أردف حلمى: "احنا عشان نتأكد من الكلام ده، هنبتدى خطتنا من بكرة، وانت يا موسى هتروح لبوريلى تطلب تشتغل عنده. لو وافق، تشتغل معه وتبدأ الشغل فورًا وتقول له: أنا عايز أشتغل من دلوقتي".

قال موسى دمتيوه: "ليه عايزنى أقوله كده؟".

قال حلمى: "عايزه يحس أنك محتاج الشغل قوي، وكمان تقوله إنك معندكش مكان تبات فيه وتطلب يدبر لك أي مكان للنوم، ثم أردف: ومش هنقابل بعض تاني".

قال موسى دمتيوه: "إزاي يعني؟".

قال حلمى: "كل يوم الصبح من تسعة لتسعة ونصف، هتقوم تروح لعربية الفول اللي في أول الشارع. هتكون كتبت في ورقة كل اللى حصل في اليوم اللي قبله، تطلب ساندوتشات فول في ورقة وهتاكل السندوتش وترمي الورقة ومعاها الورقة اللي كاتب فيها كل المعلومات، وملكش دعوة بعد كده، وأوعى تبص وراك بعد ما ترميها".

قال موسى دمتيوه: "تمام. طب لو انت عاوز توصل لي حاجة، هتوصلها لي إزاي؟".

قال حلمى: "في الأول غالبًا مش هحتاج أوصلك أي حاجة، محتاجك بس تكسب ثقة بوريلى. لما يسألك بوريلى انت اشتغلت إيه قبل كده، قله في بقالة وفي قهوة. ولو سألك عن حياتك في الأول، أكدب عليه ألف أي حاجة وقلها".

قال موسى دمتيوه: "في الأول أأكدب عليه.. إيه ده؟ هوانا هقوله على الحقيقة بعد كده".

قال حلمى: "طبعًا مش كل الحقيقة، بس في الوقت المناسب أنا هبلغك إمتى".

قال موسى دمتيوه: "طبعًا إزاي.. ده ممكن يسلمني للبوليس".

قال حلمى: "يبقى ما يبقاش صهيوني اللى زي بوريلى وجمعته. انت بالنسبة لهم لقطة متعلم وذكي ومحكوم عليك بسجن وهارب منه، يعني هيمارسوا عليك كل طرق الاستغلال اللي في دمهم بكل أريحية لصالحهم".

قال موسى دمتيوه: "عندك حق".

قال حلمى: "وطبعًا لازم تكون قدامهم غير متدين أو حتى ملحد، لكن في نفس الوقت بتحب الوطن المزعوم ومؤمن بالقومية اليهودية والفكر الصهيوني، ولازم تكون طماع وجشع عشان يطمنولك أكتر".

ثم أردف: "وطبعًا الفلوس اللي معاك دي بكرة هنديها لتهامى عشان يفتح حساب في بنك مصر، وتنسها دلوقتي خالص، تمام يا موسى؟".

قال موسى دمتيوه: "تمام يا حلمى".

قال حلمى: "كل اللى أنا قلته دلوقتي لازم تلتزم به بالحرف عشان تحافظ على حياتك. الناس دي اللي بيشكوا فيه بيتقتلوا على طول، ومتقلقش أنا هكون برقبك وجنبك معظم الوقت".

قال موسى دمتيوه: "أنا مش قلقان".

اتجه موسى دمتيوه صباح اليوم التالي إلى مقهى بوريلى. دخل موسى إلى المقهى ليجد بوريلى يحتسي قهوته.

قال موسى دمتيوه: "شالوم يا مسيو بوريلى".

قال بوريلى مبتسمًا: "شالوم".

قال موسى دمتيوه: "ممكن يا مسيو تشغلنى عندك؟".

قال بوريلى: "اسمك إيه؟".

قال موسى: "موسى دمتيوه".

قال بوريلى: "يهودي؟".

قال موسى دمتيوه: "أيوه يا فندم".

قال بوريلى: "اشتغلت إيه قبل كده يا موسى؟".

قال موسى دمتيوه: "اشتغلت بقال وكمان اشتغلت في قهوة بلدي".

قال بوريلى: "اشتغلت في قهوة مين؟".

قال موسى دمتيوه: "في قهوة صغيرة في الموسكي".

قال بوريلى: "أنا آسف، مش محتاج حد دلوقتي".

ليخرج موسى دمتيوه من المقهى شاكراً بوريلى، ولكن لم يذهب بعيدًا بل جلس أمام المقهى على الرصيف بالجانب الآخر من الشارع.

وبعد ساعات، يخرج بوريلى ليركب سيارته الجديدة، فيرى موسى دمتيوه ووجهه إلى الأرض ويبدو عليه الحزن الشديد وعدم الحيلة. وكان حلمى من بعيد يراقب كل ما يحدث.

يقترب بوريلى من موسى دمتيوه متحدثًا إليه: "إيه يا موسى، أنت لسه قاعد هنا؟".

قال موسى دمتيوه وهم واقف: "تعبت من التدوير على شغل، ومعنديش حتة أقعد فيها غير الشارع".

قال بوريلى: "طب تعالى ورايا يا موسى".

يدخل هو وموسى مرة أخرى المقهى مناديًا: "يابولو، يابولو". (باولو هو من يدير المقهى مع بوريلى).

قال باولو: "تحت أمرك، ميسيو بوريلى".

قال بوريلى: "خلي موسى يساعدك في الشغل، وخليه يبقى يبات في المخزن، وشوف له حاجة يأكلها عقبال لما أروح مشوار وأجي".

قال موسى دمتيوه: "شكرًا ميسيو بوريلى".

يخرج بوريلى متجهاً إلى مطبعة لوسيان شيتو وخلفه حلمى يراقبه.

يدخل بوريلى المطبعة ليجد لوسيان يحتسي قهوته.

قال بوريلى: "شالوم مسيو لوسيان".

قال لوسيان: "شالوم بوريلى. خلي موسى يعمل لك قهوة".

قال بوريلى: "موسى، فكرتني في ولد اسمه موسى دمتيوه، جالي في القهوة وطلب شغل. إيه رأيك؟".

قال لوسيان: "ما المشكلة؟ شغله ونشوفه كويس، وأنا سألت عنه وقول لك."

قال بوريلي: "ايه أخبار المجموعة الجديدة اللي هتروح إلى أرض الوطن؟ جاهزين ولا لا؟"

قال لوسيان: "لسه شوي، ما تستعجلش، وبلاش نتكلم في الموضوع ده هنا. في مكان مخصوص للكلام ده، الحيطان لها ودان."

قال بوريلي: "أنا آسف، أنا بس مزنوق محتاج فلوس عشان أفتتاح الكازينو الجديد."

قال لوسيان: "كل شيء وله ميعاده يا حبيبي، بلاش الاستعجال بتاعك ده، هايودينا في داهية."

ظل موسى دميتوه يعمل بمقهى بوريلي أكثر من شهر، ويرسل جميع ما يحدث لحلمي بالطريقة المتفق عليها، والتي لم يجد فيها أي شيء مفيد أو غير طبيعي.

دخل بوريلي المقهى بعد عودته من مطبعة لوسيان، وقام باستدعاء موسى دميتوه ليحدثه غاضبًا: "إنت ليه يا موسى مقولتش إنك هربان من السجن؟ إنت مش عارف كده إنك ممكن تضرني؟ دي جزاتي إنّي لمتك من الشوارع."

قال موسى دميتوه: "أنا آسف يا مسيو، أنا كنت معنديش حل تاني، خفت أقول لك ما ترضاش تخليني أكمل شغل معاك."

قال بوريلي: "طب حتى عشان أخد احتياطاتي."

قال موسى دميتوه: "أنا آسف يا مسيو، أنا همشي دلوقتي حالًا."

قال بوريلي بهدوء: "تمشي تروح فين؟ إنت خلاص بقيت واحد مننا ولازم نساعدك. كان من الأول الكلام ده."

قال موسى دميتوه متظاهراً بالسعادة: "شكرًا، شكرًا مسيو بوريلي."

قال بوريلي بصوت منخفض: "النهاردة بالليل هاخدك أوديك مكان جديد تشتغل فيه وتستخبى فيه، ومش هتيجي هنا تاني."

تضرب الحيرة فكر موسى دميتوه؛ سوف يغير مكان عمله ولن يأتي هنا مرة أخرى قبل وجبة الإفطار المعتادة، ولكن حلمي قد أخبر موسى أنه سوف يراقبه معظم الوقت. لذا، أخذ موسى قرارًا بكتابة ما يريد إخبار حلمي وذهب لشراء ساندوتش جبنة من البقال القريب من المقهى.

وكان بالفعل حلمي بالقرب منه، وعندما ألقى موسى الورقة وعاد مرة أخرى إلى المقهى، أخذ حلمي الورقة وقرأ ما فيها وتوقع أنه قد اقترب من شيء مهم.

استعد ليلاً لمراقبة بوريلي وموسى دميتوه، واتفق مع سيارة أجرة لتقف بالقرب من المقهى في انتظار خروج بوريلي وموسى دميتوه.

خرج بوريلي ومعه موسى دميتوه بيده حقيبة ملابس بعد منتصف الليل، وتحركوا بالسيارة الخاصة ببوريلي، وتحرك حلمي خلفهم.

عبرت السيارة كوبري قصر النيل متجهة إلى الجزيرة، وظلت السيارة تسير حتى عبرت كوبري الإنجليز أو كوبري بديعة (الجلاء حاليًا)، ثم تابعت السير يسارًا بجانب النيل حتى أصبحت في مكان مقطوع من البشر، لا يوجد به إلا حقول الذرة من جانب والجانب الآخر حشائش الغاب على ضفاف النيل. تحدث حلمي مع سائق السيارة الأجرة أن يطفئ إضاءة السيارة، تابعت سيارة بوريلي السير حتى وصلت بجانب الكثير من الحشائش على ضفاف النيل.

توقف حلمي على مسافة لا يستطيع أحد رؤيته فيها. كانت الليلة مظلمة كاحلة السواد. نزل حلمي من السيارة الأجرة مترجلاً بهدوء، وسمح للسائق بالانصراف بعد محاسبته، ليقترب من سيارة بوريلي من مسافة لا يستطيع من فيها أن يراه، وكان بوريلي وموسى دميتوه قد اقتحموا الحشائش. وظل حلمي مختبئًا بين حقول الذرة.

نزل بوريلي وموسى دميتوه في اتجاه قارب كان في انتظارهما على ضفاف النيل، وبه شخص يرتدي جلباب صعيدي وعلى رأسه عمامة بيضاء.

ركب بوريلي متحدثًا إلى الشخص: "إزايك يا بوزيت، تمام؟"

ليرد أبو زيت: "تمام يا خواجة."

أبو زيت رجل صعيدي يبدو أنه لم يتجاوز عمره الخمسين عامًا.

بدأ التحرك بالقارب بعرض النيل، وعلى القارب مصباح بدئي من الزيت يضيء لهم الطريق، وكان طول الطريق أبو زيت يلتفت يمينًا ويسارًا.

كان موسى متوجسًا خيفة يلتفت هو أيضًا يمينًا ويسارًا، لا يرى سوى السواد.

بعد وقت ليس ببعيد، ظهر شخص آخر واقف على اليابسة وسط النيل، يبدو أنها جزيرة، ويمسك مصباحًا.

عندما اقترب القارب من ضفاف الجزيرة، رأى موسى بيتًا من الطوب الدبش على أطراف الجزيرة تم إزالة جميع حشائش الغاب أمام البيت وبعض الحشائش من حوله.

البيت يتكون من طابقين؛ الطابق الأرضي من غرفة واحدة عليها باب حديدي، وبجانب البيت سلم خشبي للصعود إلى الطابق الأول الذي يتكون من غرفة بباب خشب وغرفة أخرى مغلقة من ثلاث جهات فقط، وبها ملقف هواء للغرفة الأرضية.

نزل الجميع من القارب واتجهوا إلى البيت، ثم جلس الجميع على دكة من الخشب أمام البيت، وبدأ بوريلي الحديث.

قال بوريلي للشخص الآخر: "إزايك يا عبيد، تمام؟"

قال عبيد: "كل تمام يا خواجة."

عبيد يشبه كثيرًا أبو زيت، ولكنه أكبر منه سنًا، فقد قارب الستين أو تخطّاها بقليل.

قال بوريلي وهو يشير إلى موسى دميتوه: "ده الراجل اللي أنتم طلبتوه عشان يساعدكم. أنا عارف إني اتأخرت عليكم فيه، بس في شغلتنا دي صعب نثق في أي حد."

أبو زيت وعبيد معًا: "تمام يا خواجة، تمام. إحنا فاهمين ده كويس."

قال بوريلي: "موسى ده بعتبره زي ابني بالضبط. خلو بالكم منه وعلموه كل حاجة هنا."

ثم أضاف: "أسيبكم بقى عشان أروح، يلا يا بوزيت عشان تعديني."

انصرف بوريلي وعاد إلى الجانب الآخر من النيل، وكان حلمي في انتظاره يراقب سيارته التي يوجد بها سائق من بعيد.

ظهر بوريلي وحده وركب سيارته وانصرف.

اقترب حلمي من الحشائش واقتحمها ليجد قاربًا وبه شخص أعلى مصباح قد تحرك.

ليجلس حلمي بين الحشائش، ينتظر الصباح ويفكر كيف تكون وسيلة الاتصال بموسى دميتوه في هذا المكان.

جلس موسى بين أبو زيت وعبيد، يتبادلون أطراف الحديث، وكان كلا منهم يملك بندقية وسلاح أبيض بجانبه.

أبو زيت متحدثًا إلى موسى دمتيوه: "إيه اللي رماك يا خواجة الرامية دي؟"

قال موسى دمتيوه: "قال إيه اللي رماك على مرة؟ قال الأمر منه."

قال عبيد: "صح والله يا خواجة، اللي أمر منه."

قال موسى دمتيوه: "ممكن أسألكم سؤال؟"

قال أبو زيت: "اتفضل يا خواجة."

قال موسى دمتيوه: "أنتم قرايب؟"

قال عبيد: "أيوه، صح. ولاد عم. أنت بين عليك نبيه يا خواجة."

قال موسى دمتيوه: "أنتم باين عليكم من الصعيد."

قال عبيد: "أيوه صحيح يا خواجة، بس دي مش عايزة نبه ومن الصعيد الجواني كمان."

قال موسى دمتيوه متحدثًا إلى عبيد: "ممكن تقولي إيه هو بقى الأمر منه؟"

قال عبيد: "ينفع برضو، مش قبل ما أنت تقول يا خواجة."

بدأ موسى في سرد قصته هو وعمه يوسف دمتيوه.

ليبدأ أبو زيت في الحديث: "ما فرقش عن المر بتعنا كتير. أنت هربان وإحنا هربانين."

قال موسى دميتوه: "وأنتم هربانين من إيه؟"

قال عبيد: "من تار، بس على الأقل أنت هربان لوحدك، لكن إحنا كل واحد فينا هربان بكوم عيال."

قال موسى دميتوه: "هربان بكوم عيال فين عيالكم دول؟"

قال أبو زيت: "في البر تاني. بيراعيهم الخواجة بوريلي. ساكنين في بيوت من البيوت اللي ملكه. وإحنا كل أسبوع واحد فين ينزل يشقر عليهم في ستر الليل ويرجع الصبح من غير ما حد يلمحه. الليلة دي بقى بيبيت اللي عليه الدور لوحده هنا، عشان كده إحنا محتاجينك تكون معانا."

موسى دمتيوه لنفسه: "الصهيانة دول أساتذة في استغلال الناس وظرفهم زي ما قال حلمي."

كان خلف الدكة الخشبية الباب الحديدي بالدور الأرضي، عليه مجموعة من الأقفال بخلاف مكان لمفتاح بالباب. وكان الدور الأول يُستخدم كأبراج مراقبة وبه غرفة نوم تُستخدم بالتناوب بين أبو زيت وعبيد.

قال موسى دمتيوه: "هو الباب اللي ورانا ده مقفول بأقفال كتيرة كده ليه؟"

قال عبيد: "متستعجلش يا خواجة، هتعرف كل حاجة في وقتها."

الجزيرة في منتصف النيل مليئة بالحشائش والغاب والمستنقعات، والبعوض في كل أركانها. لا تسمع بها إلا صوت الضفادع وصرصور الغيط. يملؤها الليل والظلام الدامس الذي يعم كل أرجائها.

صعد عبيد إلى غرفة النوم ليأخذ قسطًا من النوم لم يتعدَ الثلاث ساعات، ثم صعد أبو زيت ليأخذ قسطًا من النوم هو الآخر. لم يستطع موسى النوم هذه الليلة، فالمكان مخيف بالفعل.

ظل مستيقظًا حتى الصباح. ثم بعد نزول أبو زيت من غرفة النوم، صعد هو الآخر محاولًا أن يأخذ قسطًا من النوم، لكنه لم يستطع.

كان حلمي في انتظار شروق الشمس قبل أن يغرق في النوم على ضفاف النيل. لتشرق الشمس في عينيه، ليستيقظ مسرعًا يتحسس جسده متسائلًا كيف استغرق في نومه في هذا المكان.

بدأ حلمي في تفحص المكان ليجد القارب قد رسا على جزيرة في وسط النيل، لا يرى أي شيء سوى حشائش الغاب وجزء من مبنى بالجزيرة. عاد حلمي إلى الطريق مرة أخرى، وحاول أن يرجع إلى الوراء ناظرًا إلى ضفاف النيل متمنيًا أن يرى أي وسيلة تنقله إلى الجانب الآخر من الجزيرة. بعد رجوعه أكثر من كيلومتر، قرر أن يذهب إلى الأمام. وبعد السير ٣٠٠ متر، وجد قاربًا شبه متهالك مربوطًا بالغاب. ظن حلمي أنه لأحد فلاحين المنطقة يستخدمه في الصيد. حفظ حلمي مكانه وذهب يجلس داخل حقول الذرة بالمنطقة.

باقى حلمي طول اليوم يشرب مياه النيل ويجلس بحقول الذرة حتى يأتي الليل، ولم يذق أي طعام طوال اليوم. وفي الليل، جلس حلمي ينتظر أي شخص يصل إلى مكان عبور النيل إلى الجزيرة. حتى بعد منتصف الليل بساعه ونصف تقريبًا، لتصل سيارة، وحلمي يختبئ بحقول الذرة، ليرى الثلاثة وهم بوريلي وبادوفا ولوسيان شيتو يقتحمون حشائش الغاب ذاهبين إلى الجزيرة تاركين السائق بالسيارة.

تحرك حلمي بهدوء إلى القارب، حتى أصبحت السيارة بعيدة عنه بالقدرة التي لا تصل صوت خطواته إلى السائق. ليجري بكل عزم وبأقصى سرعة ليصل إلى القارب وأنفاسه تتلاحق نفسًا تلو الآخر. ليصل إلى القارب وينزل إليه سريعًا، يجلس فيه ويبدأ الحركة في وسط الظلام الدامس تجاه ضوء بسيط جدًا يظهر خلف حشائش الغاب. ليجد بالقرب من الجزيرة المياه ضحلة يصعب تحرك القارب فيه، لأنه أتى من جانب تملأه حشائش الغاب. لينزل ليكمل السير وسط الوحل، يقترب شيئًا فشيئًا وبهدوء وحذر وحرص. لينظر من بين الحشائش ليرى موسى دمتيوه مع رجلين وخلفهم بيت من الدبش الأبيض. يحاول حلمي أن يفهم أو يعرف ماذا يدور بالداخل، لكن صعوبة المكان كان لها بالمرصد للوصول إلى أي شيء مفيد. وفي وسط هذا الرعب والظلام الدامس، يظهر أمام عين حلمي أفعى زرقاء اللون تتراقص وتحدق وترمق حلمي كأنها تعرفه جيدًا وتعرف نواياه. استمر حلمي في التحديق بها دون حتى أن يرمش، وهي تتراقص وتستعد للهجوم عليه تارة وتتراجع تارة أخرى. وبعد فترة من التحدي والتحديق المرعب، هدأت الأفعى ورحلت. ليأخذ حلمي أنفاسه التي انقطعت أثناء التحديق، ليعود إلى المراقبة مرة أخرى.

قبل ذلك بقليل، كان موسى دمتيوه جالسًا مع عبيد عندما ذهب أبو زيت إلى الجانب الآخر من ضفاف النيل كما يفعل كل يوم بعد منتصف الليل، قرب طلوع الفجر، في انتظار أي شخص يحضر إلى الجزيرة. حتى دخل عليهم بوريلي ومعه شخصان لينظروا إلى موسى نظرات ثاقبة قبل دخولهم غرفة الدور الأرضي.

ليتحدث بوريلي إلى أبو زيت وعبيد وموسى قائلاً: "خليك هنا جنبي يا موسى، وروح أنتم الاتنين امنوا المكان كويس."

ويبدأ الثلاثة موسى وأبو زيت وعبيد في مراقبة المكان. حاول موسى الاقتراب من الباب لسماع أي شيء، لكن الغرفة لا يوجد بها أي فتحات تهوية في الحائط، إلا ملقف هواء أعلها بجانب غرفة النوم بالدور الأول.

فكر موسى بالصعود إلى الأعلى لسماع أي شيء، لكنه تذكر ما قاله له حلمي بعدم المخاطرة بنفسه. ثم خرج بوريلي من الغرفة مناديًا موسى للحضور والدخول إلى الغرفة.

أدلف موسى إلى الغرفة ليجدها فارغة إلا من دواليب خشبية وترابيزة محاطة بخمسة كراسي. أمر بوريلي موسى بالجلوس وبدأ لوسيان شيتو الحديث:

"حكايتك يا موسى مش جديدة، طول ما إحنا عايشين في وطن القانون فيه بيخدم القوي بس، يبقى أكيد الوطن ده مش وطننا. وطننا هيكون فيه عدل يساوي بين القوي والضعيف، الغني والفقير، كله قدام القانون واحد".

ليرد موسى: "أمتى بس هيكون الوطن ده وأنا أروح له زحف؟"

قال لوسيان: "تروح كده من غير ما تدفع الثمن؟"

قال موسى دمتيوه: "الثمن لو كان حتة من جسمي، أنا مستعد".

ليبتسم لوسيان قائلاً: "مش هيكون كده أبدًا. هيكون حبة عرق، حبة مجهود، حبة سهر، حبة تعب. طول ما إحنا بنخطط كويس وشبابنا يمشي على الخطة بالكامل، عمره ما هيكون الثمن حتة من جسمه".

قال موسى دمتيوه: "أنا مستعد لتنفيذ أي أوامر، المهم أوصل للوطن اللي بنحلم به في الآخر".

لينظر بوريلي إلى موسى متحدثًا: "قوم يا موسى اعمل لنا شوية شاي".

خرج موسى إلى المكان الذي يقومون فيه بإشعال النار، وهو يبعد أكثر من ثلاثين مترًا عن البيت، وذلك طبقًا لتعليمات الخوجات، كما قال أبو زيت وعبيد لموسى دمتيوه عندما سألهم في الليلة الماضية عن سبب بعد المكان عن البيت، والذي أكدوا له أنه مكان لتخزين الأسلحة والمتفجرات.

أحسنت منظمة العليا بيت اختيار مكان وطريقة تخزين السلاح؛ فملقف الهواء من أعلى داخل غرفة مغلقة من ثلاث جهات فقط ومفتوحة في اتجاه دخول الهواء إلى الملقف، وذلك لتهوية مخزن السلاح حتى لا تزيد الحرارة به ويكون معرضًا للانفجار. بالإضافة إلى التربة الرطبة للجزيرة التي أيضًا تساعد على تقليل الحرارة.

أحضر موسى الشاي وعاد مرة أخرى إليهم، وقد ترك بوريلي الباب غير مغلق بالكامل، ليقترب موسى ويسمع الحديث الذي يدور بينهم. حيث ينهر لوسيان بادوفا قائلاً: "أنا قلت لك حضر الفلوس من يومين ولسه لحد دلوقتي ما جبتش حاجة. ليه، أنت مش عارف إن في عملية جديدة ومحتاجين الفلوس بسرعة؟"

بادوفا شخص بطبعه بخيل حتى لو كان المال لا يملكه ويعمل لصالح آخرين، لكنه يملك قدرة عجيبة في كسب ثقة زبائنه من طريقة كلامه وطريقة لبسه التي تشبه كثيرًا طريقة ابن البلد الشهم. رغم أنه قد تخطى الستين، لكنه يتمتع بذاكرة حديدية للأرقام، ولذلك هو المسؤول الأول عن دفع الرشاوى وجميع الحسابات الأخرى.

ليرد بادوفا قائلاً: "إيه هي الهاجاناه دي؟ مش بتشبع سلاح. إحنا بعتنا لهم من أربع شهور وأنا هلاحق على إيه ولا إيه؟"

قال لوسيان: "أنت اتجننت! أنت افتكرت أن تجارة الذهب من فلوسك؟ دي من فلوس المنظمة وأنت يدوب تديرها".

قال بادوفا: "خلاص، خلاص، بكرة هتكون عندك".

طرق موسى الباب للاستئذان.

قال بوريلي: "ادخل يا موسى، أنت اتأخرت قوي. اشرب شاي أنت والرجالة. إحنا هنمشي دلوقتي، وحضر نفسك بكرة في مشوار مهم هتروحوا معانا".

اتفق بوريلي ولوسيان وبادوفا أثناء عمل موسى الشاي لهم على مشاركته في العملية القادمة، حيث تم الاتفاق على استخدامه دون معرفة أي تفاصيل عن العملية.

تجهز أعضاء عليا بيت للرحيل، ليشاهدهم حلمي أثناء خروجهم حتى ركوبهم القارب ورحيلهم دون صدور أي صوت أو حركة داخل حشائش الغاب.

ليرى بعد ذلك صعود عبيد إلى الدور الأول بالبيت، ليكون موسى دمتيوه بمفرده.

تحرك حلمي بهدوء وسط الوحل والحشائش حتى وصل إلى أرض صلبة وتوارى بين الحشائش التي على جانبي البيت، ليقترب من موسى دون أن يراه، همسًا له من خلف حشائش الغاب.

لبى موسى حلمي سريعًا وهو يتلفت حوله خوفًا أن يراه عبيد أو يسمع صوته، ويقول له بصوت هامس: "إيه اللي جابك هنا؟ لازم تمشي فورًا، ده مخزن السلاح بتاعهم وفي ناس معايا، وبعد بكرة في مشوار معاهم، مش عارف فين".

ليرد حلمي بصوت لا يكاد يسمعه دمتيوه، وهو يشير إلى أحد جوانب الجزيرة: "الغاب اللي هناك ده هتلاقي قماشة من هدومي مربوطة فيه، ده المكان اللي هطحت فيه الرسالة كل يوم وهحط لك أي تعليمات".

ثم ترك حلمي موسى وعاد سريعًا إلى القارب الذي وجده بشق الأنفس في الظلام، ليعود إلى البر الثاني ويضع القارب في مكانه ويمحو عنه أي علامات للاستخدام.

ويرحل سائرًا أكثر من عشرة كيلومترات ليجد وسيلة للذهاب إلى شقة غمرة.

دخل حلمي إلى الشقة وبدأ في تجهيز نفسه ليعسكر كل ليلة بحقول الذرة أمام الجزيرة، ويأخذ مسدسه وبعض الذخيرة. ثم أخذ قسطًا من النوم واستيقظ قبل العصر ليذهب إلى مسجد الحسين ويضع رسالة لتهامي بضرورة احتياجه للسيارة عدة أيام.

ترك تهامي السيارة بعد صلاة العصر تاركًا المفتاح بها. استقل حلمي السيارة وذهب إلى ضفاف النيل بالقرب من الجزيرة، ثم نزع لوحة أرقام السيارة. وضع حلمي السيارة وراء عشة للفلاحين شبه مهدمة بجوار حقول الذرة، ثم وضع فوقها القش حتى لا يراها أحد أو تثير الشكوك حول وجودها في هذا المكان المقطوع.

بعد العشاء تقل المارة إلى أن تصبح شبه منعدمة، وتصبح المنطقة لا يوجد بها صريخ ابن يومين.

بعد منتصف الليل، جاءت سيارة نصف نقل أمام الجزيرة يستقلها بوريلي، واقتحم شخصان بعد نزولهم من السيارة حشائش الغاب، ثم مضت نصف ساعة ورجع الشخصان واصطحبا معهما موسى دمتيوه واستقلوا السيارة وذهبوا.

كان الشخصان هما من أتباع لوسيان يعملان معه بالمطبعة.

موسى وداود

تحرك حلمى خلفهم حتى وصلوا بجوار القلعة عند أحد أسوارها الخلفية ناحية المقطم. نزل موسى المطبعجى وداود وموسى دمتيوه، واقتربوا من السور. ثم قام موسى المطبعجى بإصدار صوتٍ من فمه يشبه الكروان، ليبدأ شخصٌ ما من فوق السور بتنزيل صناديق خشبية من أعلى السور واحداً تلو الآخر، حتى كان الصندوق الأخير الذي أخذه موسى دمتيوه، وبدأ من هو فوق السور بسحب الحبل.

ليسمع موسى دمتيوه صوت أحد الحراس: "مين هناك؟ مين هناك؟" ثم يطلق النار عليه من مسافة بعيدة من بندقيته، ليصيب موسى دمتيوه في كتفيه، ويقع على الأرض هو وصندوق السلاح، ويهرب كلا من موسى المطبعجى وداود ليصلوا إلى السيارة التي كان يقودها بوريلى، وتنطلق السيارة مسرعة بدون دمتيوه.

كان حلمى يراقب كل شيء، ليدخل في الوقت المناسب ليطلق النار على قدم الحارس، فيسقط، ثم أخذ بندقية الحارس ثم يذهب لدمتيوه ويساعده على النهوض قائلاً له بعد تفحصه: "متخفش، الخرطوش جاي في كتفك بس."

ثم يتحرك حلمى حاملاً صندوق السلاح ويسند موسى دمتيوه ليصلوا إلى السيارة هاربين من أصوات صفارات الإنذار التي أطلقها الحراس في كل مكان بالقلعة. بعد أن وصل حلمى لمكان هادئ وآمن، بدأ بنزع قميص موسى وتقطيعه وربط جرحه جيداً، ليقول له: "لازم ترجع النهاردة ليهم، لو مرجعتش النهاردة هيشكوا فيك."

قال موسى دمتيوه: "أنا تعبان يا حلمى، تعبان."

قال حلمى: "معلش، ساعة بالكتير ونوصل."

قال موسى دمتيوه، وهو يتوجع ويحاول أن يتماسك بأخذ أنفاس عميقة وإغماض عينيه: "ولاد الكلب سابوني، غرقان في دمي وهربوا."

وصل حلمى بالسيارة بالقرب من القارب الذي ينقله إلى الجزيرة، لينزل موسى دمتيوه قائلاً: "يلا يا بطل، هما ميت متر بس اللي هتمشيهم، ولما توصل لهم قُل لهم إنك ضربت الحارس بالبندقية بتاعته وإنك وقفت أتومبيل واجبرته يجيبك بالقرب من الجزيرة وإنك مشيت كتير عشان توصل للقارب. يلا، شيل صندوق السلاح.. يلا يا بطل، ربنا معاك."

تحرك موسى دمتيوه ووصل إلى مكان القارب بعد أن قربت أنفاسه على الانقطاع، ولكنه لن يجد القارب أو أبو زيت في انتظاره، ليضع صندوق السلاح على الأرض ثم يقع بين الغاب فاقد الوعي، فقد نزف كثيراً من دمائه.

قبل وصول دمتيوه للقارب بنصف ساعة، قد أوصل بوريلى داود وموسى المطبعجى وصناديق السلاح عند القارب وذهب يحاول أن يعرف أي شيء عن موسى دمتيوه، وهل قبض عليه أم مات، وذلك خوفاً من أن يتكلم عنهم أو عن مخزن سلاحهم.

رجع أبو زيت بقاربه بعد توصيل داود وموسى المطبعجى والسلاح إلى المخزن، ليجد موسى دمتيوه ملقىً على الأرض غائباً عن الوعي، ليحمله إلى القارب هو وصندوق السلاح وينطلق إلى الجزيرة.

واختبأ حلمى يراقب ما يحدث طول الليل منتظراً أن يطمئن على موسى دمتيوه.

في صباح اليوم التالي، يفتح موسى دمتيوه عينيه ليجد أبو زيت وعبيد بجواره، والابتسامة تطل من بين أعينهم ووجوههم السمراء. ابتسم موسى لهم قائلاً: "الحمد لله أني لسه عايش." ليرد عبيد: "عمر الشاقى باقى. ليقول موسى دمتيوه :"أمال فين الخواجة بوريلى واللي معاه؟"

قال أبو زيت: "أطمنوا عليك وما مشوا."

قال موسى دمتيوه بضحكة متعبة ساخرة: "كتر خيرهم."

قال عبيد: "وعندك يا عم أجازة ثلاثة أسابيع لحد ما تخيف خالص."

قال موسى دمتيوه: "بقولك يا عبيد، انت عارف الخوجات دول بيشتغلوا في إيه؟"

قال عبيد: "أيوه طبعاً عارف، ثم أضاف في تجارة السلاح وبيبيعوا السلاح للبيا والسودان كمان."

قال موسى دمتيوه: "صح، برافو عليك!" ثم ذهب مرة أخرى في النوم.

انتظر حلمى خمسة أيام لم يقم فيهم بإرسال أي رسائل لموسى بالطريقة المتفق عليها، رغم وضع موسى دمتيوه رسالة له بعد ثلاثة أيام حتى يطمئن حلمى عليه. في اليوم الخامس، ذهب حلمى بنفس الطريقة ليلاً ليجد رسالة من موسى دمتيوه يطمئنه عليه ويخبره أن كل ليلة تقريباً (العلياه بيت) يحضرون صناديق السلاح والبارود والقنابل اليدوية وغير ذلك، حتى امتلأ مخزن السلاح.

بعد عدة أيام، وموسى دمتيوه لم يتماثل للشفاء الكامل، سمع صوت عبيد يرحب بالخواجة لوسيان والخواجة بادوفا، فعلم أن هناك اجتماع مهم، ليبدأ بالتحرك سريعاً إلى ملقف الهواء قبل دخول أعضاء العلياه بيت مخزن السلاح، ليبدأ الاجتماع وذلك خوفاً من إحساسهم بتحرك السقف الخشبي أعلاهم.

ظل موسى راقداً بالقرب من ملقف الهواء ليستمع إلى ما يدور بين أعضاء العلياه بيت.

بدأ لوسيان شيتو الحديث: "بعد خمسة أيام من دلوقتي، المركب هتكون قدام الجزيرة بتنزل البلاليص الفخار والأواني الخزف عشان رجالنا تبدأ بحشوها بالأسلحة وترجع تتحمل تاني، وكل دا في ظرف ساعتين بس، مش أكتر من كده. القمر هيكون منتصف عشان يدوب نشوف بعض، ومفيش حد يلمحنا. المركب هتكون عليها تلت رجال تبعنا، وأحنا عندنا كمان تلت رجال، داود وموسى المطبعجى وموسى دمتيوه." ثم نظر لوسيان إلى بوريلى قائلاً: "فين دمتيوه؟"

ليرد بوريلى: "لسة بيدلع يا سيدي، سألت عليه عبيد قال لي نايم فوق."

قال لوسيان: "المهم يكون جاهز بعد خمسة أيام، إحنا أكيد هنحتاجه معانا."

قال بوريلى: "أكيدة هيكون جاهز."

ليقول موسى دمتيوه لنفسه: "لازم أكون جاهز."

ليكمل لوسيان: "أنا عايز المركب تكون في القناطر الخيرية قبل طلوع النهار، ثم أضاف يعني لازم المركب تخلص في أقل من ساعتين، مفيش هزار. لو وصلت إن إحنا كمان نشتغل معهم، هنعمل كده."

بعد كده، هيتم نقل البضاعة من المركب لعربيات، وفي مجموعة تانية هتكمل برّي، أنا مرتب معها.

ثم أضاف لوسيان محدثًا بوريلى: أكّد على أبو زيت وعبيد يفتحوا عينيهم كويس اليوم ده ويناموا كويس قبله.

ثم قال لوسيان موجهًا حديثه إلى بادوفا: هتكون جاهز بالفلوس طبعًا اليوم ده، ويكون معاك فلوس بزيادة، مش عايز بخل .

ثم أردف لوسيان محدثًا بوريلى: المخزن عايز يترتب أكتر من كده عشان نشتغل أسرع يوم التحميل. حاول تخلي الرجالة يلموا دفاتر الأرشيف في الدولابين دول ويطلّعوا باقي الدوليب بره عشان سهولة الحركة في المخزن يوم التحميل... الاجتماع انتهى، وياريت كل واحد فينا يلتزم بدوره.

انتظر موسى دمتيوه حتى خرج الجميع من المخزن ليعود سريعًا إلى مكان نومه ويتظاهر بالنوم.

ثم كتب كل ما سمعه بالتفصيل في ورقة ووضعها في مكان المراسلة.

لتصل الرسالة إلى حلمى، ليذهب إلى شقة غمرة ويبدأ بوضع خطة محكمة للقضاء على أعضاء علياة بيت وأرشيف المنظمة مرة واحدة، فهي فرصة لا تتكرر.

توصل حلمى مع تهامى ليخبره بدوره في الخطة، وتفق معه على المكان والزمان لمقابلته.

في الليلة التالية، وضع حلمى دور موسى دمتيوه الذي سوف يقوم بتنفيذه برسالة في المكان المعتاد، وكانت هناك خطة وخطة بديلة.

مرت الأربعة أيام وتماثل موسى دمتيوه للشفاء بنسبة كبيرة، لكن طبقًا للخطة، تظاهر أمام الجميع بالتعب وعدم التماثل للشفاء الكامل.

جاء منتصف الليل الخامس ليجد موسى دمتيوه الجميع على أتم الاستعداد.

رست المركب بالقرب من الجزيرة في المكان المخصص لها والمعد جيدًا من قبل (العلياة بيت).

مركب شراعية لها شراع واحد كبير،سطح المركب كان له فتحة متر في متر يتم إنزال البضاعة عن طريقها إلى قاع المركب.

بدأ الجميع بالتحرك سريعًا، وبدأ بوريلى بتوزيع الأدوار على الجميع، وكان دور موسى دمتيوه هو بقاع المركب لاستلام الأسلحة من أعلى سطح المركب لوضعها بمكان التخزين، وذلك طبعًا بعد وضعها في البلاليص والأواني الفخارية.

كان هو الدور الذي توقعه حلمى له لأنه من أسهل الأدوار، وذلك لإصابته الحديثة.

عمل الجميع بكل جدية وتفانٍ، وكان عبيد وأبو زيت يقومان بتأمين الجزيرة من جانبيها في اتجاه وجود المركب، وكان لوسيان وبادوفا وبوريلى يشرفون على وضع الأسلحة بالبلاليص والأواني الفخارية، ثم بعد تجهيزهم من داود وموسى المطبعجى، يقوم الثلاث رجال الذين يعملون بالمركب بنقلها إلى سطح المركب، ثم يعودون مرة أخرى إلى مخزن الأسلحة لنقل الباقي.

أخذ موسى دمتيوه البضاعة ووضعها بقاع المركب. استمر العمل أقل من ساعتين، وجاء رجال المركب مع آخر مجموعة بلاليص، ولم يعد أي منهم إلى المخزن مرة أخرى. وعندما سألهم دمتيوه قالوا: سيأتي موسى المطبعجى وداود بالباقي. فعرف دمتيوه أن الوقت الحاسم قد جاء.

نزل دمتيوه أسفل قاع المركب لاستلام آخر طردين من موسى المطبعجى وداود، وبعد تسليم آخر طردين، وقف الرجال على سطح المركب يتبادلون الحديث ويستريحون.

ليخرج موسى دمتيوه من ملابسه لفة من القش الناشف قد أعدها لهذه اللحظة، ووضعها في إحدى البلاليص التي تحتوي على بارود، وأخرج من جيبه كبريتًا وأشعل النار في القش، وخرج مسرعًا من فتحة قاع المركب، وقفز في الماء قبل أن يلتفت من كان على سطح المركب لما فعله موسى دمتيوه، لتنفجر المركب بعد لحظات بكل ما فيها، ويتحول ليل النيل إلى نهار، ليرى موسى دمتيوه الأستاذ تهامى ينتظره بالقارب بالقرب من الجزيرة، ليعوم إليه ويصعد على القارب ليُرحب به تهامى قائلاً: حمد الله على السلامة يا بطل.

قبل ذلك بلحظات، كان حلمى يتسلل إلى الجزيرة من ناحية عبيد ليأتي من خلفه وبيده قطعة قماش بها بنج ليكتم أنفه وفمه، فيقع فاقد الوعي. ليقترب حلمى من المخزن بحذر، يتوارى بين حشائش الغاب. وبعد خروج آخر طردين مع موسى المطبعجى وداود، لم يتحرك بوريلى وبادوفا ولوسيان من مخزن السلاح، فكانوا يتحدثون في الأمور المالية مع بادوفا، وعن حساب المركب والسيارات التي ستكمل نقل البضاعة برًا، ورشاوى التي سيتم توزيعها على الكمائن، وهو ما سوف يقوم به بوريلى في اليوم التالي.

أثناء تلك الحديث، يحدث الانفجار المرتب من حلمى، ويدخل حلمى عليهم وهم لم يفيقوا من صدمة دوي الانفجار، ويقوم بإطلاق النار على أقدامهم وأيديهم.

وجميعهم لا يستوعبون ما حدث... شاخصة أبصارهم، وأفواههم مفتوحة، لا يملون الصراخ. ليغلق حلمى الباب خلفه، وقد أحضر معه عبوة جاز كبيرة ليبدأ في نشر الجاز في أنحاء وأركان المخزن، وعلى جميع الدواليب المملوءة بالدفاتر، وعلى أجساد أعضاء العلياة بيت الذين لم يكفوا عن الاستعطاف لحظة واحدة.

ليخرج الكبريت، ويشعل النار وهو يبتسم وينظر إلى الباب الحديد، وعينه تفيض بالدموع، ولكن يعلوها الابتسامة... ابتسامة الراحة والخلاص، ابتسامة الانتصار. لينتظر ظهور الباب... باب الحكمة... ليظهر الباب مكتوبًا على ظهره كلمات لأول مرة: (اعلم أن الحكمة بداخلك، بين رفوف عقلك، تجري بين طيات لسانك، تتوارى بين إلهاءات فكرك... فتش عنها... أنت الحكمة.)

ليضع حلمى يده على الباب ويديره، وتدير كل مساميره النحاسية، ليفتح على فكرى عالمه، يحاول فيه أن يعيش بما تعلمه من الماضي...

يدخل فكرى إلى الشركة ويجلس على كرسي مكتبه ليغرق في نومه.

صباح اليوم التالي، أتى فهمى إلى مكتب فكرى وبدأ في إيقاظه: فكرى، فكرى، فكرى! أصحى يا فكرى، إيه اللي نايمك كده بس على المكتب.

تم بحمد الله.